المتروبوليت انطوان بلوم

مدرسة الصلاة

نقله إلى العربية

هاشم الحسيني

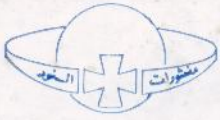

coptic-books.blogspot.com

حقوق الطبع محفوظة لمنشورات النور
ص. ب ١١٢٩٦٦ بيروت - لبنان
coptic-books.blogspot.com

المتروبوليت انطوان بلوم

مدرسة الصلاة

نقله إلى العربية
هاشم الحسيني

منشورات النور

coptic-books.blogspot.com

نبذة عن حياة المتروبوليت انطوان بلوم

ولد في لوزان سنة ١٩١٤ ، من أب عمل دبلوماسياً في العهد القيصري بروسيا ، وأم هي شقيقة المؤلف الموسيقي الكسندر سكريابين . أمضى طفولته متنقلا بين روسيا وايران . درس الطب في باريس حيث اكتسب الجنسية الفرنسية وعمل كطبيب جراح خلال الحرب العالمية الثانية . اشترك في المقاومة ضد النازية . بدأ حياته الرهبانية سنة ١٩٤٣ وسيم كاهناً سنة ١٩٤٨ . أرسل الى لندن سنة ١٩٦٢ مع منحه مهمة الاشراف على الكنيسة الروسية في بريطانيا وايرلندا . مثل بطريرك موسكو في أوروبا الغربية . رقي الى درجة متروبوليت سنة ١٩٦٣ . يسهم المتروبوليت انطوان في نشاطات المجلس العالمي للكنائس وقد مثل الكنيسة الروسية في مؤتمري نيودلهي سنة ١٩٦١ وجنيف سنه ١٩٦٦ . وقد ترك منصب ممثل بطريرك موسكو سنة ١٩٧٤ .

صدرت الطبعة الاصلية من هذا الكتاب باللغة الانكليزية سنة ١٩٧٠ بعنوان :
« SCHOOL FOR PRAYER »
وقد ترجم الى عدد من اللغات الاخرى .

coptic-books.blogspot.com

مقدمة

مقابلة مع المتروبوليت انطوان

تيموثي ولسون (١) : هل ولدت في روسيا ؟

المتروبوليت انطوان : كلا ، ولدت في سويسرا حيث كان ابي يعمل في السلك الدبلوماسي ، وكان فيهـا حين ابصرت النـور . غير اننا عدنا الى روسيا قبيل الحرب العالمية الاولى .

ت.و. : وماذا جرى اذ ذاك ؟

المتروبوليت : نقل ابي الى ايران وهناك امضيت الشطر الثاني من طفولتي .

ت.و. : ماذا حل بأسرتك بعد الثورة الروسية ؟

المتروبوليت : عبرنا شمالي ايران على ظهـر جـواد ، ثم بواسطة عربة صغيرة ، وقطعنا جبال كردستان ، الى ان ابحرنا عبر

(١) صحافي انكليزي

coptic-books.blogspot.com

دجلة والفرات في قارب شراعي . أخيراً وجدنا أنفسنا على متن سفينة انكليزية صغيرة كانت تتجه نحو الهند ، وهناك استطعنا العثور على باخرة مبحرة الى سوثامبتون . اقول مبحرة لاننا لم نصل الى سوثامبتون قط ، فقد ابلغنا في لحظة الابحار بأن السفينة قديمة جدا لا تستطيع مجابهة الانواء . واعتراني شعور جارف بأمل تحطمها على ارض جزيرة نائية لكي اصبح روبنسون كروزويه جديدا . ولم اكن لافهم كم ان والدتي بعيدة عن الروح الرومنطيقية اذ كانت تمني النفس بالطقس الحسن . على ان الله كان الى جانب الاهل لاننا في النهاية وصلنا الى جبل طارق سالمين . لكن سفينتنا لم تكن قادرة على المضي الى ابعد من ذلك . وعلى هذا النحو وصلت بعض حقائبنا الى سوثامبتون ، وقد تمكنا من استلامها بعد مرور اربع عشرة سنة ، ولكن ليس قبل دفع رسم جمركي عنها قدره ليرة استرلينية واحدة . وعشنا في تلك الفترة متنقلين بين اسبانيا وفرنسا وحتى يوغوسلافيا . ومنها عدنا الى النمسا حيث ذهبت الى المدرسة فترة من الوقت قبل ان نعود ثانية الى فرنسا لنقيم فيها مدة سبعة وعشرين عاما ابتداء من سنة ١٩٢٣ .

ت.و. : يا لها من طفولة رومنطيقية مثيرة ! وماذا حل بابيك ؟

المتروبوليت : اضطر بالطبع للتخلي عن مهنة الدبلوماسية ، وقرر قطع كل صلة له بالماضي ، اذ شاء ان يحمل نفسه بعض المسؤولية بالنسبة لما جرى من احداث دامية وقعت في روسيا . واختار ان يكون عاملا في سكك الحديد حينا وفي المصنع حينا آخر الخ... الى ان تدهورت صحته . واضطر عندئذ لممارسة عمل مكتبي . لكنه لم يحاول قط ان يعود لنمط حياته السابق . لقد اصبح الماضي بالنسبة اليه هو الماضي وواجبه ان يتحمل مسؤولية ما حصل في روسيا .

ت.و. : يبدو ان اباك رجل عجيب . فهل لك ذكريات كثيرة عنه ؟

المتروبوليت : اذكر بعض الافكار . والحقيقة ان فكرتين اثنتين من افكاره احدثتا في نفسي تأثيرا بالغا وعاشتا معي دائما . الفكرة

coptic-books.blogspot.com

الاولى موضوعها الحياة . قال لي ذات يوم بعد انتهاء العطلة : « قلقت عليك ! » فسألته : « هل ظننت بأن حادثا وقع لي ؟ » اجابني : « لو وقع لك حادث ، حتى لو كان مميتا ، لوجدت الامر بسيطا ! لا ، كنت اخشى الا تظل انت نفسك ! » . وفي مناسبة اخرى ، ابدى لي هذه الملاحظة : « لا تنس ابدا انه لا يهم اذا كان المرء حيا او ميتا . المهم هو ذاك الذي من اجله نعيش ومن اجله نكون على استعداد للموت » . هذا مما يدل على الروح التي تربيت عليها منذ نعومة اظفاري وعلى معنى الحياة الذي افضى به والدي الي .

ت.و. : ما نوع التعليم الذي تلقيته في تلك الحقبة ؟

المتروبوليت : كنت اذهب الى المدرسة كسائر الاولاد الذين هم في عمري ، لكني بدأت العمل في سن الثانية عشرة باعطاء الدروس لصبية اصغر مني لكي اتمكن من شراء كتبي .

ت.و : وما كنت تدرس ؟

المتروبوليت : الحساب وكل ما كنت اعرفه ويجهلونه . بعد ذلك بدأت اعطي دروسا في اللاتينية وكنت قويا فيها . وهكذا تمكنت من دفع اقساطي في الجامعة : كل مساء كنت اعطي ثلاثة دروس او اربعة في الفيزياء والكيمياء واللاتينية ، مما امن لي نفقات المعيشة وانا اتابع دراستي .

ت.و. : هل كانت حياتك هذه شاقة جدا ؟

المتروبوليت : نعم ، لأن هذه الدروس كانت تملأ كل امسياتي ، اما عملي الشخصي فكان يتراكم حتى آخر الاسبوع وكنت معظم الاحيان مضطرا لقضاء ليلة السبت في العمل ، حيث آوي الى فراشي في الثامنة من صباح الاحد وانام حتى الظهر لأعود الى كتبي . وكادت صحتي تعتل ، لكنني على الاقل استطعت ان اكمل دراستي.

ت.و. : هل كنت قد اصبحت في تلك الفترة طالب طب ؟

المتروبوليت : بعد تخرجي من المدرسة الثانوية ونيلي شهادة البكالوريا فرع الفلسفة ، دخلت الصوربون لأتابع فيها دروس

coptic-books.blogspot.com

الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا . بعد ذلك تابعت دروس الطب وحصلت على الدكتوراه في فترة اندلاع الحرب .

ت.و. : صرت طبيبا منذ عام ١٩٣٩ اذاً ؟

المتروبوليت : نعم ، لكنني دخلت سلك الجندية في ايلول ١٩٣٩ وكان نشاطي فيها على نوعين : في بداية الحرب ونهايتها كنت جراحا في الجيش الفرنسي ، اما في ما بين الفترتين فكنت في المقاومة .

ت.و. : اكنت تعمل في المستشفى ابان الاحتلال الالماني ؟

المتروبوليت : نعم ، الى الوقت الذي جعلتني فيه نشاطاتي السرية داخل المستشفى في وضع خطر ، عندها توليت وظيفة استاذ .

ت.و. : الم تتعرض ابدا للاعتقال ؟

المتروبوليت : كلا ! واخشى انني لم انجح في ان اكون بطلا ، حتى في هذا المضمار !

ت.و. : ما كانت جنسيتك وقتئذ ؟

المتروبوليت : حتى سنة ١٩٣٧ كنت بلا جنسية . وطلبت الجنسية الفرنسية في السنة نفسها ولا زلت احتفظ بها حتى اليوم. اذا ، رسميا انا فرنسي ، لكنني انتسب الى جيل روسي في قلبه . ويبدو لي انني لا انتسب كليا لفرنسا او لروسيا من جهة التعليم والثقافة . في روسيا اشعر بأنني روسي لان الروسية لغتي الام وروسيا بلدي ، لكنني لا انتمي كليا لروسيا لانني مهاجر . اما خارج روسيا فانني روسي الى حد لا اقوى معه على الاندماج التام .

ت.و. : متى اصبحت مسيحيا ؟ وهل ثمة مفترق حاسم في اعتناقك هذه الديانة ؟

المتروبوليت : تم ذلك على مراحل ، فحتى سن الخامسة عشرة ظللت غير مؤمن ، احمل شعورا عدائيا تجاه الكنيسة . ولا اعترف بأي اله ، ولم يكن الله ليثير اهتمامي بل كنت امقت كل ما يمت بصلة لفكرة الاله من قريب او بعيد .

coptic-books.blogspot.com

ت.و. : رغما عن أبيك ؟

المتروبوليت : نعم ، لأن حياتنا حتى تلك الفترة كانت قاسية جدا . فعائلتنا مشتتة في اربع زوايا ضمن باريس وانا تلميذ في مدرسة داخلية فيها الحياة خشنة قاسية . كنت قد بلغت الرابعة عشرة حين قيض لنا ان نعيش معا تحت سقف واحد ، هذا ما كان عندي بمثابة ينبوع للغبطة لا شائبة فيه . قد يبدو غريبا ان نجد السعادة المطلقة في بيت من بيوت الضاحية في باريس . ولكن هكذا كان حالي ، للمرة الاولى منذ الثورة اصبح لنا بيت . ولكن قبل ان اتناول هذا الحدث ، خليق بي ان اشير للقاء حملني على التفكير الطويل . في سن الحادية عشرة تقريبا ، قصدت الى مخيم صيفي ، هناك تعرفت على كاهن في نحو الثلاثين من عمره لاحظت عنده شيئا اثار اهتمامي ، بدا لي وكان لديه معينا لا ينضب من العاطفة ، كان يحبنا جميعا ، كيفما كنا ، عقلاء او شياطين . لقد كان حبه غير مشروط حقا ! ابدا لم ار شيئا كهذا من قبل ! في البيت كانوا يحبونني واجد الامر طبيعيا . لي اصدقاء وهذا ايضا امر طبيعي كما بدا لي ، لكنني لم اصادف قط حتى ذلك الحين حبا من هذا النوع . لم اكن قادرا في تلك الفترة على اكتشاف مصدره . وحرت في امر هذا الكاهن الذي لم نستطع الا ان نحبه . على انني بعد سنوات وحين اكتشفت الانجيل ادركت ان هذا الكاهن يغمرنا بحب يتجاوز شخصه. يوزع بيننا الحب الالهي او ان حبه الانساني اذا شئت ، هو من العمق والاتساع بحيث يستطيع ان يغمرنا جميعا في السراء والضراء بحب واحد فريد . واظن ان تلك هي تجربتي الروحية الاولى .

ت.و. : وماذا حصل عند ذلك ؟

المتروبوليت : لا شيء !. عدت الى المدرسة الداخلية واستمرت الحياة على حالها متماثلة ، حتى اليوم الذي اجتمع فيه شملنا . وحينما حظيت بالسعادة الكاملة حققت اكتشافا غير منتظر . ادركت فجاة ان كل سعادة بغير هدف لا تطاق . وبات متعذرا علي ان ارضى بسعادة لا غاية لها . في الحياة ، لا بد من اجتياز التجارب والآلام لأن ثمة شيئا وراءها دائما . لكن هذا النوع من السعادة

coptic-books.blogspot.com

لا طعم له عندي ، فهو لا يحمل اي معنى خارجا عنه وانا ما كنت مؤمنا في شيء . وقررت ان امنح نفسي مهلة سنة لاكتشف ما اذا كان للحياة معنى مـــا . فاذا لم اتمكن خلال السنة من ايجاد معنى لها وجب علي ان لا استمر في العيش ، ان انتحر .

ت.و. : وكيف توصلت الى الخروج من تلك السعادة التي لا هدف لها ؟

المتروبوليت : بدأت البحث عن معنى للحياة يختلف عن معنـــى غاياتها العملية . فالدراسة بهدف ان يصبح المرء ذا فائدة في الحياة لم تبد لي مقنعة . كانت كل حياتي حتى ذلك الحين تتوق لأهداف مباشرة وسرعان ما ظهر ان هذه الاهداف فارغة . كنت احس بان شيئا مأساويا لا حدود له يجري في نفسي وان ما حولي بدا تافها لا معنى له .

ومضت الشهور ولم يظهر في الافق اي معنى . وفي ذات يوم خلال الصوم الكبير وكنت منتسبا لاحدى جمعيات الشبيبة الروسية جاءني احد المسؤولين عن فرقتي وقال لي : « دعونا احد الكهنـــة ليقدم لنا حديثا . فتعال ! » . رفضـــت وانـــا استشيط غيظـــا . فالكنيسة لا تثير اهتمامي وانا غير مؤمن بالله . ولا اريد ان اضيع وقتا ثمينا . وبلباقة شرح لي صديقي ان جميـــع افراد المجموعة تصرفوا على غراري ، واضاف قائلا انه لـــو تغيب الجميـــع عن المحاضرة لاصبحنا في وضع مخجل ، اذ كيف لهذا الكاهن ان يتحمل عناء المجيء ولا يجد احدا يسمعه . واضاف الصديق : « انت غير مرغم على الاصغاء فالامر لا يهمني ولكن تعال واثبت وجودك » . كنت مستعدا لمجاراته ضمن هذه الحدود من اجل مجموعتنا ولهذا حضرت المحاضرة . لم يكن في نيتي ان اصغي لكنني ارهفت السمع على الرغم مني . وتملكني السخط . وبدت لي صورة عن المسيح والمسيحية تثير الغثيان . وفور انتهاء الحديث عدت الى البيت لاتحقق من صحة ما سمعته . وسألت امي اذا كان عندها الكتاب المقدس فقد شئت ان اتثبت مما اذا كانت قراءته ستكرس ذاك الانطبـــاع البشع الذي كونته من اقوال المحاضر . وبما انني لم اكن انتظر من قراءتي اي امر طيب فقد تصفحت الاناجيل الاربعة لأضمن قـــراءة اقصر الفصول ، كيلا اضيع وقتي بلا جدوى وبدأت بانجيل مرقص .

coptic-books.blogspot.com

خلال قراءتي وقبل أن أبلغ الاصحاح الثالث ، شعرت فجأة بحضور ما في الجهة الثانية من مكتبي . وايقنت انه حضور المسيح وكان يقيني من الشدة بحيث انه لم يعد يغادرني ابدا منذ ذلك الحين . تلك كانت الفترة الحاسمة التي مرت على اعتناقي الايمان. فلأن المسيح كان حيا ولأنني جلست في حضرته ، كان من الممكن ان اتثبت بكل تاكيد ان ما قاله الانجيل عن صلب نبي الجليل صحيح وان القائد الروماني لم يكن على خطأ حين هتف : « حقا هذا هو ابن الله ! » . وعلى ضوء القيامة قيض لي ان اقرا بيقين مطلق رواية الانجيل ، مدركا بان كل ما ورد فيها صحيح لأن حدث القيامة المستحيل كان بالنسبة الي اكثر ثبوتا من اي حدث في التاريخ . فالتاريخ ، علي ان احمل نفسي على تصديقه ، اما القيامة فصارت بالنسبة الي واقعا . وكما ترى ، انا لم اكتشف الانجيل انطلاقا من رسالة البشارة الاولى . ولم يبد لي كرواية نحن مخيرون في تصديقها او عدم تصديقها . وانما بدا لي بالدرجة الاولى حدثا يتجاوز مسائل الشك كافة ، ذاك لأنه بالنسبة الي تجربة مباشرة وشخصية .

ت.و. : وهل صاحبك هذا اليقين طيلة حياتك ؟ الم يساورك الشك في بعض الفترات ؟

المتروبوليت : وجدتني في داخلي موقنا كل اليقين بأن المسيح حي وبأن ثمة اشياء لا يرقى لوجودها اي شك . لم تكن عندي كل الاجوبة لكنني تأكدت بعد هذه التجربة ان العديد من الاجوبة والرؤى والامكانيات ستعطى الي في مسيرتي . وما اعنيه بالايمان ليس الشك بمعنى ان يغوص المرء في البلبلة والحيرة ، لكنه الشك من اجل ان يكتشف الانسان حقيقة الحياة بصورة افضل . ذاك الشك الذي يدفع الى طرح الاسئلة واكتشاف المزيد من الامور والسير قدما في سبر الاغوار .

ت.و. : متى تمت سيامتك كاهنا ؟

المتروبوليت : سنة ١٩٤٨ ، وكنت قبل ذلك قد نذرت نفسي للحياة الرهبانية . لكنني حافظت على سرية الموضوع ، فمن المستحيل ان اوفق بين علنية حياتي الدينية وممارسة مهنة الطب .

coptic-books.blogspot.com

كان علي اذا ان امارس نوعا من الحياة الرهبانية في مهنتي ، مجهدا نفسي كي اكون امينا لنذور الاستقرار والفقر والعفة والطاعة، معبرا عن كل ذلك في نشاطاتي المهنية ، خلال الحرب اولا ثم بعدها حين استقريت في عملي كطبيب . ولم يعرف احد بهويتي الرهبانية الا في يوم سيامتي . ثمة في الوقت الحاضر نقص في عدد الرهبان بحيث انه لم يقيض لأي واحد من ابناء جيلي الذين اختاروا الرهبانية بهدف العيش حياة منعزلة ناسكة ان يتابع رسالته . فكلنا استدعينا من قبل اساقفتنا للالتحاق بالخدمة الرعوية .

ت.و. : او لا زلت راهبا ؟

المتروبوليت : نعم .

ت.و. : لكنك تمارس الحياة العامة ، اذا صح القول ؟

المتروبوليت : سيان عندي بين العيش مع الناس او العيش في صحراء . فمن الاسهل من بعض النواحي ان يكون المرء فقيرا في امكانياته المادية على ان يكون فقيرا في حياته الداخلية او ان يكون بلا رابطة . فالعيش بلا رابطة شاق جدا لا يمكن الوصول اليه الا تدريجيا بين سنة واخرى . وعند ذاك يتعلم المرء حقا ان يقيم الاشياء بقيمتها الحقيقية ، وان يتطلع الى الاخرين مكتشفا جمالهم البهي دون ان ينزع لامتلاكهم من وراء ذلك . فقطاف زهرة يعني امتلاكها وقتلها ايضا . انا مدين لنذر الفقر لانه مكنني من الاجادة في تقييم كل شيء ، ولكن ينبغي من اجل ذلك ان يكون المرء حرا في داخليته اولا . ثمة لحظات نجد فيها من الضروري ان نغيب جسديا لكي نتعلم ما يعنيه — بالنسبة لهذا الشيء او ذاك الشخص — الوجود لذاته وليس فقط الوجود كمرآة لانفعالاتنا الشخصية . نحن غالبا حينما نقول « احبك » نقولها بضمير المتكلم البارز وبضمير المخاطب الذي لا يكاد يرى . نستعمل « فعل الحب » كحرف عطف بدل ان نرى فيه « فعلا » يدل على حركة . لا جدوى من تفحص الكون على امل العثور على الله فيه . بل الواجب ان نتطلع باهتمام الى جارنا ، هذا الانسان الذي وهبه الله الحياة والذي من اجله مات الله . ان كل واحد من الذين نصادفهم له حق الحياة لان له قيمة بحد ذاته ونحن لم نالف هذه النظرة ما فيه الكفاية ! ان

coptic-books.blogspot.com

نرضى بأن يكون الاخرون اخرين يمثل خطرا او تهديدا . والاعتراف بحق الغير بان يكون نفسه قد يعني ذات يوم الاعتراف لـه بحق القضاء علي انا . لكنني لو جعلت حقه يقتصر على مجرد الوجود لانكرت عليه هذا الحق الاخير .

الحب شاق . والمسيح صلب لأنه علم نوعـا من الحب زرع الذعر في قلوب معاصريه ، حب يفترض الاستسلام بغير شروط ، حب يحمل في طياته الموت .

ت.و. : ماذا تعني هنا ؟

المتروبوليت : لو اتجهنا نحو الله ولاقيناه وجها لوجـه ، كـان واجبنا ان نعد انفسنا لدفع الثمن . والا نكون قد عبرنا الحيـاة كشحاذ ينتظر غيره ليدفع نيابة عنه . ولكن لو اتجهنا نحو الله ، لاكتشفنا آنئذ ان الحياة عميقة ، واسعة الارجاء تستاهل كثيرا ان تعاش .

ت.و. : هل يمكننا الرجوع الى الوراء ، الى الحقبة التي كنت فيها راهبا تمارس الطب في الوقت نفسه ؟ ماذا حققت لك هـذه التجربة المزدوجة ؟

المتروبوليت : ساجيبك بطرفة . اثناء الحرب ، وصل الـى المستشفى الذي كنت اعمل فيه طبيبا جراحا ، جندي الماني اخترقت رصاصة احدى اصابعه فحطمتها . نظر رئيس الجراحين خـلال جولته على المصابين الى الاصبع وامر ببترها . قرار سريع ، سهل لا يتطلب تنفيذه اكثر من خمس دقائق . اذ ذاك قـال الجنـدي : « هل من احد يتكلم الألمانية ؟ » واجبته على سؤالـه بلغتـه . اخبرني عندئذ بأنه ساعاتي وانه لو بترت اصبعـه لن يستطيـع العودة الى مزاولة مهنته ابدا . هذا الحدث كشف لي ان لكونه ساعاتيا اهمية تضاهي كل الاعتبارات الاخرى . اجيبك اذا بأنني تعلمـت كيف اعطي الاولوية للمسائل الانسانية . عند ذلك يمكننا حقا ان نصلي من موقع نكون فيه الى جانب الحقيقة ، صلاة ثابتة تمكننا من الوقوف في حضرة الله وجها لوجه وتسمح لنا بان نكون بكل بساطة معه .

coptic-books.blogspot.com

ت.و. : بعد سيامتك ، تم ارسالك الى بريطانيا ؟

المتروبوليت : وصلت الى بريطانيا في آخر كانون الثاني ١٩٤٩ لتولي مهام كاهن جمعية القديسين البان وسرجيوس الانجليكانية — الأرثوذكسية ، كان قرارا جسورا من قبل رؤسائي لو اخذنا في الاعتبار انني كنت لا اعرف من الانكليزية كلمة واحدة .

ت.و. : لكنه يبدو لي انه لم يلزمك وقت طويل لتعلم الانكليزية .

المتروبوليت : كي اتعلم الانكليزية الدارجة التي لا يستغنى عنها في نقل افكاري — مع اضحاك الناس احيانا كثيرة على حسابي — من اجل هذا لم يلزمني كثير من الوقت .

ت.و. : اما زلت تعاني من صعوبة في الاتصال ، بالطبع لأن العقيدة المسيحية لا يمكن فهمها بسهولة وبسرعة ؟

المتروبوليت : ليس عندي مشكلة . ان ما ابحث عنه هو ان اعيش كل موقف من الداخل، ان اعطيه من نفسي كليا بدون ان اصير عبدا له . والنقطة الاساسية بالنسبة لي هي الا اسأل ابدا عن نتيجة ما اعمله ، فهذا شأن الله . والسؤال الوحيد الذي اطرحه على نفسي هو التالي : ما الذي يجب ان اعمله ، ما الذي يجب ان اقوله في هذه اللحظة المحددة ؟ والشيء الوحيد الذي يمكنني عمله هو ان اكون نفسي في كل لحظة وقدر الامكان وان اجعل الله يستخدمني رغما عني لو اقتضى الامر !

كلما تكلمت ، عبرت بكل ما اوتيت من معتقد وايمان . واعلق حياتي كلها على اقوالي . وما يهم ، ليس ان اقول هذا القول او ذاك بل ان ابلغ مستوى القناعات الشخصية لدى اولئك الذين اخاطبهم . ذلك اساس كل اتصال ، ومكان اللقاءات الحقة . ولو حاولوا الاستهزاء بي فلا بأس ! لكن اذا استطاعت كلماتي ان توقد في نفوس محدثي تلك الشرارة التي تجعل الحوار ممكنا ، اذ ذاك يصبح للشيء الذي نتحدث عنه اهمية قصوى .

coptic-books.blogspot.com

ت.و. : هل تجد ان الثقافة الضحلة التي تسود انكلترا حاليا تجعل التبشير بالانجيل صعبا ؟

المتروبوليت : نعم ، لأن الانجيل يجب ان لا يبلغ العقل وحده بل الكائن كله . يجيبك الانكليز معظم الاحيان : « هذا امر جدير بالبحث ، ويجب سبر اغواره كفكرة » ، لكنهم لا يذهبون الى ابعد من ذلك . ملاقاة الله هي كالدخول الى عرين الاسد . فليس حملا وديعا ما نلاقي بل اسد . ملكوت الله خطير ، فلا يكفي توفير المعلومات بشأنه وانما يقتضي التقرير حول دخوله .

ت.و. : ما اكثر ما اثار انتباهك لدى وصولك الى بريطانيا ؟

المتروبوليت : عجبت بموقف الانكليز امام الموت . اذ يبدو الموت بالنسبة اليهم عملا غير لائق . فلو قيض لك ان تنحط لدرجة الموت ، سيتولى اخصائيو او متعهدو دفن الموتى امر اعدادك وتعبئتك من اجل مراسيم الدفن . وبعد ذلك باسابيع ، يجري الاحتفال بخدمة التذكار ، وتكون بالنسبة للحاضرين المناخ الملائم للسمو بمشاعرهم . اذكر ايضا انني ذات يوم كنت القي في كامبردج عظة عن الموت في كنيسة الجامعة ، وقتئذ اعترف لي احد الكهنة من الحاضرين انه لم يشاهد ميتا في حياته ! لماذا هذا الموقف المرضي تجاه الموت ؟ فحتى في الحياة العادية لا يمكن التخلص من الناس عن طريق تهريبهم من باب خفي ! لو كان الموت يعني السقوط ونهاية الحياة فقط لادركنا نفور العائلة المفجوعة منه ، ورفضها التطلع اليه مواجهة على اعتبار ان دورها سيأتي بعد حين . فبالنسبة للذين يقفون منه موقفا خاطئا لا يمكن الا ان يكون اكثر بشاعة ورهبة .

وتعود الى الذهن ذكرى اخرى : توفيت سيدة عجوز من معارفي واتصل بي ذووها هاتفيا طالبين حضوري الى حيث هي . حين وصلت الى بيتهم لم ار الاولاد . فسألت عن سبب غيابهم ــ لانه من الشائع في الكنيسة الارثوذكسية حضور الاولاد الى جانب الميت في حين يبقى تابوته مفتوحا ــ فأجابتني امهم : « سيخافون ، لانهم لا يعرفون ما هو الموت » . قبل ذلك بايام كانوا قد شاهدوا

coptic-books.blogspot.com

ارتبا دهسته سيارة وخشي والداهم أن ترعبهم رؤية الجدة مسجاة على نعشها . رجوت الوالدين ان يأتيا بأبنائهما الى قرب جدتهما المتوفاة ، متعللا بأنهم سيحملون فكرة الخوف من الموت طيلة حياتهم ان لم يأتوا . ورضخ الوالدان اخيرا . وعاد الاولاد الى البيت ودخلنا جميعا الغرفة التي سجي فيها الجثمان ، ظللنا هنيهة صامتين قرب السرير وفجأة قال احدهم : « كم هي جميلة جدتي ! » ولم يعد الموت بالنسبة اليهم امرا مرعبا .

ت.و. : لم تتحدث عن والدتك ولكن يبدو لي انها كانت قريبة جدا منك ؟

المتروبوليت : كانت امراة رائعة ، شديدة البساطة والعفوية . بها تحقق لقائي الاول مع الموت لأنها كانت مصابة بالسرطان . منذ ذلك الحين اتخذت الحياة بالنسبة الينا معنى عجيبا . لعل كل ما كنا نتفوه به او نعمله يوحي بانه الشيء الاخير ، في كل ذلك كانت تتجسد اربعون سنة من المحبة .

ت.و. : باعتبارك مهاجرا وبما انك لم تشعر كليا بالتكيف ، كنت في وضع خاص نسبيا ، فهل تعتقد حين تنظر الى حياتك ان ايمانك المسيحي قد تأثر بهذه التجربة ؟

المتروبوليت : من المحتمل ان يكون الامر كذلك . ابان الثورة فقدنا مسيح الكاتدرائيات ، ومسيح الليتورجيا المبنية بشكل مدهش ، واكتشفنا المسيح القابل للوهن كما نحن قابلون . اكتشفنا المسيح الذي لفظ كما نحن كنا ملفوظين . واخيرا اكتشفنا المسيح الذي لم يكن معه احد في اللحظة العصيبة حتى ولا اصدقاؤه ، هذه التجربة كنا نعرفها ايضا بالمشابهة .

الله يمد لنا يد العون حين لا يوجد احد يساعدنا . ويقف الله في اعلى نقاط التوتر ، في نقطة الانفصال ، في قلب العاصفة . واليأس يقع من كل شيء في صميمه تقريبا ، هذا فيما لو كنا مستعدين لعبوره . وعلينا ان نكون معدين لنعرف الوقت الذي يغيب فيه الله ولا نكون خلاله راغبين في ان نستبدل به الها مزيفا .

coptic-books.blogspot.com

ذات يوم ، كما ورد في الكتاب ، جاءت لمقابلتي كطبيب فتاة حكمت على الاناجيل حكما مبرما ولم تكن قد اطلعت عليها . وبعد ذلك ببعض الوقت وخلال رحلة شهر العسل اصيبت بالعمى في صالة للسينما حيث كانت تشاهد فيلما مع زوجها . وقد كتبت لي في اواخر مراحل مرضها : « لم يعد قلبي يقوى على الاتجاه نحو الله » . كانت لديها جراة القبول بغياب الله رافضة ان تحل في مكانه الها مزيفا او عزاء ما . تأثرت ايما تأثر بهذه الشجاعة العجيبة لدى تلك المراة الشابة ولم اعد قادرا على نسيانها قط .

فيوم يكون الله غائبا ، يوم يكون صامتا ، عندها تولد الصلاة . الصلاة لا تبدا حينما يكون لدينا قول الكثير لله ، ولكن عندما نصيح به : « لا اقوى على العيش بدونك ، فلماذا تبدو قاسيا الى هذا الحد ، ساكنا الى هذا الحد ! » ، وحين ندرك انه ينبغي لنا ان نجده او ان نموت . ونشق طريقنا الى حضوره مهما كلف الامر . ونحن لو اصغينا لما يعرفه قلبنا من رغبة وحب ولو كنا لا نخشى من اليأس ابدا ، لأمكننا ان نكتشف بأن النصر يقع على الوجه الاخر لليأس .

تأتي بعد ذلك فترة يتوق القلب فيها لله ، اقول لا لعطايا الله وانما لله نفسه . ثمة شعور بالحزن معظم الاحيان ، حتى في صميم الكفاية والعادة ، كذلك في النظرة التي تزداد حدة وهي تتطلع الى اللانهاية . ونتلهف على الوطن ، ذلك الوطن الذي لا تعرف حدوده، وطن فيه نجد المحبة والامتلاء والحياة .

ت.و.م : اذكر انني سمعتك تقول : « انا مصاب بالجنون ، ولكن بجنون غريب لأن ثمة اناسا يرغبون في ان يصابوا به » . فما الذي كنت تقصده ؟

المتروبوليت : دائما نحن كمسيحيين نكون في حالة توتر وقلق كما نكون في غمرة السعادة في نفس الوقت . امر جنوني مضحك ، الا انه صحيح . نحن نرضى بظلمات الليل تماما كما نرضى بضوء النهار . من اجل هذا يجب ان نقوم بفعل التخلي ، فاذا كنت في المسيح يجب علي في بعض الاحيان ان اصرخ مع الرب الذي على

coptic-books.blogspot.com

الصليب واقاسمه نزعه الاخير في جبل الزيتون . ثمة شكل من اشكال الانهزام ، حتى في الايمان نفسه ، ذلك شكل من اشكال مشاطرة الرب نزعه الاخير . لا اظن ابدا بأن علينا ان نقول : « هذا لا يمكن ان يحدث لك ! » فاذا كنا مسيحيين ، وجب علينا طيلة حياتنا ان نتقبل الحياة والعالم دون ان نحاول ان نخلق لانفسنا عالما مصطنعا .

لكننا من ناحية اخرى ، نجد المسيحي اشبه بانسان يعيش في ثلاثة ابعاد ، وسط عالم يعيش فيه معظم الناس في بعدين فقط . وعندما يعيش المرء حرا في بعد الابدية ، يصير لزاما عليه ان يجد دائما ان شيئا ما لا يسير على ما يرام وان يعتريه شعور من هو في جادة الخطأ . واجه المسيحيون الاوائل هذه المشكلة حين كانوا يعلنون بأن لا ملك لهم سوى الله . وكانوا يردون حجتهم قائلين : « اذا تكلمتم على هذا النحو ، كنتم غير امناء تجاه ملكنا ! » ثم يضطهدونهم . لكن الطريقة الوحيدة ليكون الانسان امينا للعالم المزدوج الابعاد هو ان يكون امينا للعالم المثلث الابعاد . فلو كنا حقا نعيش في ثلاثة ابعاد — وليس في اثنين فقط ونحن نحلم بالثالث — تصبح الحياة غنية ملأى بالمعاني . هكذا عاش المسيحيون الاوائل وبوسعنا نحن اليوم ان نحذو حذوهم .

ت.و. : بودي ان اطرح عليك سؤالا اخيرا — عن روسيا . انت تذهب اليها كثيرا ، فما الذي تفعله فيها ؟

المتروبوليت : اقصد الى روسيا مرة في العام لأعرض للبطريرك وضع الكنيسة الارثوذكسية في اوروبا الغربية ، ولأعطي دروسا في كليات اللاهوت واخيرا لأبقى على اتصال مع الكنيسة الروسية . واؤدي خدمة الليتورجيا ، واعظ في الكنائس واحدث الناس البسطاء .

ت.و. : هل لك ان تتخذ موقفا سياسيا ؟

المتروبوليت : جهدنا انفسنا لنخلق نوعا من التوتر المثمر في ما بين انتمائنا غير المشروط للكنيسة الروسية وبين التأكيد على صفتنا

coptic-books.blogspot.com

كمهاجرين سياسيين . وفي وسط هذا التوتر في ما بين هويتنا كرجال تابعين للكنيسة وبين موقفنا السياسي ، نجد انفسنا على جانب اكبر من الحرية كأعضاء في الكنيسة مما لو كانت الكنيسة والدولة في وفاق تام .

ت•و• : هل الحياة الدينية حية في روسيا ؟

المتروبوليت : انا مقتنع بذلك . فمن الناحية الاحصائية ، نجد نحو ثلاثين مليون مؤمن يمارسون الطقوس ، وهو رقم لا يستهان به خصوصا بعد خمسين سنة من السعي الدؤوب لاقتلاع جذور الايمان سواء بممارسة الاضطهاد الدموي خلال الحكم الستاليني او نتيجة الدعاية المركزة . والواقع اننا نرى الشبيبة الروسية تعنى اكثر فاكثر بالمسائل الروحية واصبحنا نرى المزيد من الشباب في زيارة الكنائس اما بقصد ممارسة الشعائر الدينية واما بقصد الاستعلام عنها . وهناك عدد كبير من الشباب ممن يولون اهتماما كبيرا لله والمسائل الروحية .

ت•و• : وانا اصغي اليك تتكلم ليس عن روسيا فقط وانما عن كل شيء ، اراك متطلبا جدا . فقد تحدثت قبل قليل عن « دفع الثمن » كما عبرت عن اعتقادك بعدم اهمية الموت .

المتروبوليت : هذا صحيح ، ولعله بامكاني ان اثبت قناعتي هذه بقصة من التاريخ الحديث للكنيسة الروسية . وفيها نجد كما يبدو لي ما اسعى لتبيانه على انه الموقف المسيحي الاصيل . خلال الحرب الاهلية ، حينما كانت الجيوش المتحاربة تتنازع على السلطة ، تارة خاسرة وطورا رابحة وذلك على مدى ثلاث سنوات ، سقطت مدينة صغيرة كان يحتلها الجيش الامبراطوري في ايدي الجيش الاحمر . وكان يعيش في هذه المدينة امراة وطفلاها وسط الخطر على حياتها لأن زوجها ينتمي للفريق الثاني ، كان ابنها البكر في الرابعة والثاني في الثالثة . اختبأت المراة في بيت مهجور على امل ان تتمكن من الفرار . ذات مساء طرقت بابها سيدة مثلها في العشرين تدعى نتاليا وسألتها اذا كانت هي فعلا السيدة ن. ولدى جوابها بالايجاب اخبرتها بأن مخبأها قد اكتشف وانه سيتم اعتقالها

coptic-books.blogspot.com

مساء لتعدم رميا بالرصاص . واضافت قائلة : « عليك ان تهربي على الفور ! » فاجابتها المراة المسكينة وهي تنظر الى ولديها : « كيف استطيع ذلك ؟ » ان نتاليا التي كانت بالنسبة اليها مجرد جارة اصبحت في هذه اللحظة قريبتها ، قريبتها في الانجيل . قالت لها : « هذا ممكن لانني سابقى هنا وساجيب باسمك حين يأتون لاعتقالك » . وهتفت الام الشابة : « ولكنهم سيرمونك بالرصاص » فاجابت : « اجل ولكن انا ليس لي اولاد » . وبقيت في البيت . من اليسير هنا تصور النهاية . مع نزول الليل اخذت الظلمات والرطوبة والبرودة تحكم الاطباق على ذاك المنزل . هناك امراة تنتظر الموت . فكيف يمكن عدم التفكير بجثسيمانيا ؟ بوسعنا ان نتخيل نتاليا وهي ترجو ان تبعد عنها هذه الكأس وقد الفت نفسها على غرار المسيح تواجه سكون الله . نتصورها تتجه بالفكر نحو اولئك الذين بامكانهم مساعدتها لو لم يكونوا بعيدين . كان تلامذة المسيح نائمين وليس بوسعها ان تطلب المساعدة بدون ان تخون . ونراها تصلي اكثر من مرة كيلا تذهب تضحيتها هباء على الاقل .

تساءلت مرات عديدة ولا ريب عما سيكون مصير الولدين وامهما بعد موتها بدون ان تسمع اي جواب سوى قول المسيح : « لا يوجد حب اعظم من ان يعطي الانسان حياته فداء عن الذين يحبهم » . ولا بد وان تكون قد فكرت اكثر من مرة بانها لو ارادت لاستطاعت بلحظة ان تكسب الامان . لم يكن عليها الا ان تفتح الباب ، وحين تسير على الطريق تعيد هي نفسها وليس المراة الاخرى . يكفيها الا تعترف بتلك الهوية المستعارة التي اختارت ان تتقاسمها وصاحبتها . لكنها ماتت رميا بالرصاص . وانقذت حياة الطفلين وامهما .

coptic-books.blogspot.com

الفصل الأول

غياب الله

سنتعلم الصلاة ، ولكن بودي في البداية ان ابعد كل التباس . « تعلم الصلاة » لا يعني بالنسبة لي تبريرا او تفسيرا تأمليا للصلاة، وانما هو بالاحرى ما يجب ان نعرفه وما يجب ان نفعله حين نريد ان نصلي . وحيث انني شخصيا مبتدىء ، لذا افترض انكم مثلي ، وباننا سنسير على الدرب معا . انا لا اتوجه الى اولئك الذين يصبون الى ممارسة الصلاة الصوفية او الى اعلى درجات الكمال ، لأن هذه الحالات تعلم نفسها بنفسها . قد يحدث في بعض المناسبات العجيبة ان يتمثل الله لنا او ان نصل اليه نحن ، عندها تنجلي الامور على حين غرة وبدرجة من العمق ليست متوقعة . ونكتشف في انفسنا فجأة ينبوع الصلاة ، والنقطة التي ينهل منها هذا الينبوع. في مثل هذه الاحوال لا تعود مسألة الصلاة امرا مطروحا . وحين يعترينا شعور بحضور الله نقف عندئذ قبالته ونعبده ونتحدث اليه .

coptic-books.blogspot.com

في البداية ، ان معضلة هامة تظهر امامنا ، انه موقف جميع اولئك الذين يبدو الله غائبا بالنسبة اليهم . وعن هذه القضية بالذات اريد ان احدثكم . بديهي انني لا اتحدث هنا عن غياب حقيقي — فالله ليس في الحقيقة غائبا على الاطلاق — وانما عن شعورنا بغياب الله . فنحن اذ نمثل في حضرة الرب ونطلق نداء باتجاه سماء قاحلة لا نحظى منها بأي جواب . وندور في جميع الاتجاهات ولا نعثر على الله في اي مكان . فما الذي علينا ان نعتقده في مثل هذا الموقف ؟

اولا ، من المهم ان نتذكر **ان الصلاة لقاء وعلاقة** ، علاقة حميمة . وان هذه العلاقة لا يمكن ان تفرض ، سواء علينا ام على الله . وواقع ان الله يستطيع ان يعطينا الشعور بحضوره او ان يتركنا نشعر بغيابه يشكل جزءا من تلك العلاقة الحية والحقيقية . ولو استطعنا ان نستدعي الله بصورة آلية ، وننبهه لضرورة الحضور الينا ، لا لشيء الا لاننا اخترنا هذه الساعة للقاء ، اذ ذاك لا يعود هناك اية علاقة او لقاء . بوسعنا ان نتصرف على هذا النحو مع صورة ، مع خيال او مع مختلف الاوثان التي قد نضعها نصب اعيننا في مكان الله . ذلك امر غير ممكن مع الاله الحي وحتى مع اي انسان حي . كل علاقة يجب ان تولد وتنمو في مناخ الحرية المتبادلة . ولو نظرنا الى الطابع التبادلي للعلاقة ، لادركنا ان لدى الله اسبابا للشكوى اكثر مما لدينا . **نشكو من انه لا يحضر الينا** خلال تلك الدقائق التي نخصصها له ، فما بالنا بثلاث وعشرين ساعة ونصف قد يطرق الله بابنا خلالها ونجيبه : « آسف ، انا تعب ! » **او لعلنا لا نجيبه ابدا لاننا لا نسمعه وهو يطرق على باب قلبنا وعقلنا وضميرنا وحياتنا . هناك ظروف عديدة اذا لا يحق لنا** فيها التذمر من غياب الله اذ نكون نحن اكثر غيابا منه .

ثمة نقطة اخرى شديدة الاهمية لا بد من ذكرها ، وهي ان **لقاء الله مواجهة** نعده دائما بالنسبة الينا ساعة حساب . ولا يسعنا ان نلاقي الله في الصلاة او التأمل او الرؤيا الا لخلاص او دينونة . ذلك لا يعني — وهذا امر بديهي — ان الله قد اصدر حكمه باللعنة الابدية او الخلاص الابدي ، لكنها في كل الاحوال

coptic-books.blogspot.com

لحظة حرجة نعيشها او ازمة . والازمة بأصلها اليوناني تعني « الدينونة » . ولقاء الله مواجهة في الصلاة يعبر عن لحظة حاسمة في حياتنا . وبوسعنا ان نشكر الله لانه لا يحضر دائما الينا كلما رغبنا في لقائه ، فلعلنا لا نكون قادرين على تحمل هذا اللقاء . تذكروا مقاطع عديدة وردت في الكتاب المقدس تتحدث عن مدى الخوف من المثول امام الله ، لان الله كلي القدرة ، ولان الله هو الحق ، ولان الله هو الطهارة اللامتناهية . وينبغي ان يكون رد فعلنا الاول — حين لا نبصر حضور الله بشكل ملموس — بمثابة اقرار بالفضل . فالله رحيم لا يظهر في ساعة غير مناسبة . ويمنحنا القدرة على محاسبة ذواتنا وعلى فهم الامور ، وعلى ان لا نمثل امامه في لحظة قد تؤدي لادانتنا .

بودي ان اعطيكم مثالا عما ابديته . منذ زمن بعيد طلب الي زائر ان اريه الله . فأجبته بأن الامر مستحيل . واضفت انه حتى ولو كان بامكاني ذلك فانه هو نفسه لن يستطيع ان يشاهده ، ذلك انني كنت اعتقد ولا زلت بانه لكي يلاقي الانسان الله ينبغي ان يكون له معه شيء مشترك ، شيء يهبه عينين يرى بهما فيمكنه من ادراكه . ورجاني محدثي ان اوضح ، فاقترحت عليه ان يفكر لحظات ويقول لي اذا كان يفضل بشكل خاص مقطعا من الانجيل وما هو هذا المقطع ، وذلك كي استطيع ان اكتشف نوع العلاقة الموجودة بينه وبين الله . واجابني : « في الاصحاح الثامن من انجيل يوحنا ، حادث المرأة الزانية » . « شيء رائع » قلت له ، « ذلك فصل من اجمل الفصول واكثرها اثرا في النفس . والان اجلس واسأل نفسك اي شخص تمثل في هذا المشهد ؟ هل تمثل المسيح ؟ ام انك من جهته على الاقل ، وكل شيء فيك مفعم بالرحمة والتفهم والثقة ايضا بهذه المرأة التي يمكنها ان تندم وتصبح مخلوقا جديدا ؟ ام هل انت المرأة التي ضبطت بجرم الزنى ؟ ام واحد من الكهول الذين ابتعدوا على الفور لانهم يعرفون خطاياهم ، او واحد من الشباب الذين ينتظرون ؟ » وفكر لحظة ثم اجاب : « كلا ! ما انا الا ذاك اليهودي الذي بقي في مكانه ورجم تلك المرأة ! » عندها قلت له : « اشكر الله لانه لا يمكنك من لقائه وجها لوجه ! » .

coptic-books.blogspot.com

قد يعد مثالي هذا متطرفا ولكن كم من مرة نجد في انفسنا مواقف مشابهة ! لا لاننا نرفض بخشونة الكلام او المثال الذي يرتئيه لنا الله ، لكننا نقوم بما قام به الجند في يوم الآلام ولكن على نحو اقل عنفا . بودنا ان نتمكن من وضع رباط على عيني المسيح كي نضربه بحرية دون ان يرانا احد . اليس هذا ما نفعله تقريبا حين نتظاهر باننا نجهل وجود الله معنا فنستسلم لرغائبنا وامزجتنا على الرغم من كل ما يبدي لنا ارادة الله ؟ ونسعى لحجب الرؤية عنه لكننا في الواقع نعمي انفسنا . كيف يسعنا في لحظات كهذه ان نمثل امامه . يمكننا ان نقدم على ذلك ولا شك ولكن ليس بدون قلب مسحوق ، منكسر . فليس بمقدورنا ان ندعي لقاءه ونطلب اليه ان يستقبلنا على الفور بنفس المحبة والصداقة اللتين ننتظرهما منه .

اعيدوا قراءة الانجيل . ثمة اناس اعظم منا ترددوا في استقبال المسيح . تذكروا قائد المئة الذي رجا المسيح ان يشفي خادمه، فأجابه المسيح : « سآتي » . لكن القائد هتف : « كلا : تفوه بكلمة واحدة فقط وسيشفى خادمي » . فهلا فعلنا مثله ؟ هلا توجهنا الى الله لنقول له : « تظهر علي بشكل محسوس ! حسبي ان تقول كلمة واحدة وانا متأكد من ان طلبي سيستجاب . ولا اطلب اكثر من هذا في الوقت الحاضر » . انظر الى بطرس في زورقه بعد رحلة الصيد العجائبية وهو يجثو على ركبتيه ويقول : « ابتعد عني يا رب ، فانا انسان خاطىء ! » لقد هزه شعور التواضع فتوسل الى المسيح ان يبتعد ، احس بخشوعه لانه اكتشف فجأة عظمة يسوع ! فهل حدث لنا الشيء نفسه احيانا ؟ وحين نقرأ الانجيل وتبدو لنا صورة المسيح في جلالها ، وحين نصلي وندرك عظمة الله وقداسته، هل حصل ان قال واحدنا : «انا لا استحق ان تقترب الي» ؟ هذا حتى لا نذكر المرات العديدة التي ينبغي لنا فيها ان ندرك ان الله لا يستطيع ان يأتي الينا لاننا لسنا حاضرين لاستقباله . نحن ننتظر شيئا منه ولا ننتظره هو ! اتسمي هذه علاقة ؟ اهكذا نتصرف مع اصدقائنا ؟ هل نبحث عما تجلبه لنا الصداقة او انه صديقنا هو الذي نحب ؟ اعلى هذا النحو نتصرف مع الرب ؟

coptic-books.blogspot.com

فكروا بصلاتنا وصلاتكم وصلاتي . فكروا بحرارة هذه الصلاة وعمقها وحدتها حين تقيمونها من اجل انسان تحبونه او بالنسبة لأمر هام عندكم . كم ينفتح قلبكم . كل حياتكم الداخلية تستجمع نفسها ؟ امن اجل هذا يقال ان الله موجود في حسابكم ؟ كلا ! هذا يعني فقط ان الغرض الذي وراء صلاتكم هو ما تحسبون له الحساب . والواقع انه حين تفرغون من صلاتكم المفعمة بالمشاعر ، الحارة والمدوية من اجل اولئك الذين تحبونهم او بالنسبة لذاك الشيء الذي يهمكم ، وحين تنتقلون الى امر آخر اقل لجاجة ، فاذا بكم تشعرون بالبرودة تعتريكم ، فما الذي يكون قد تغير ؟ هل اصبح الله من جليد ؟ هل مضى ؟ كلا ! بل ان وهج صلاتكم وحدتها لم يأتيا من حضور الله او من ايمانكم فيه ، وانما فقط من التفكير في الشخص الذي تحبون او في الشيء الذي يشكل موضوعا لهمكم ، وليس من التفكير بالله ، كيف لنا اذا في مثل هذه الظروف ان نعجب لأن غياب الله يعذبنا ؟ فنحن الذين نجعل انفسنا غائبين ونحن الذين نصبح من جليد منذ اللحظة التي لا نعود فيها مهتمين بالله . لماذا ؟ لأن الله لا يوضع كفاية في الحسبان ! بوسع الله ان يكون غائبا على اشكال كثيرة اخرى . وطالما نحن موجودون حقا ، وطالما نحن انفسنا فان الله يستطيع ان يحضر الينا ويعمل شيئا من اجلنا . ولكن ما ان نحاول ان نكون غير ما نحن ، فلا يبقى لنا شيء للقول او التحقيق . ونصبح بمثابة شخص وهمي ونعبر عن حضور غير حقيقي ، لا يستطيع الله ان يقربه .

وحتى نكون قادرين على الصلاة ، ينبغي ان نضع انفسنا في موقف هو كملكة الله . ويجب ان نعترف بان الله هو الله وانه ملك وانه علينا تسليم انفسنا له. على الاقل يجب ان نهتم بمشيئته اذا لم نكن بعد قادرين على تنفيذها . اما اذا عاملنا الله كما عامله الشاب الغني في الانجيل ، الذي لم يكن قادرا على اتباع الرب بسبب وفرة امواله فكيف يمكننا لقاء الله ؟ واذا كنا نتوخى معظم الاحيان — عن طريق الصلاة والعلاقة الحميمة بالله — ان نؤمن حقبة جديدة من السعادة ليس اكثر ، فنحن غير مستعدين لبيع كل ما نملك من اجل ان نبتاع اللؤلؤة الباهظة الثمن . انى لنا الحصول على هذه اللؤلؤة في ظروف كهذه ؟ بل هل نرغب في مجرد العثور عليها ؟ من المعلوم في العلاقات الانسانية انه حين يكون الرجل

coptic-books.blogspot.com

والمراة متحابين منهما يحسبان حساب الاخرين على النحو نفسه ، ويعبر العالم القديم عن الامر بهذه العبارات : « حين يتخذ الرجل امراة ، فلا يعود محاطا برجال ونساء وانما بجمهور لا اسم له » .

اوليست هذه حالنا ، بل اوليس هكذا يجب ان تكون حالنا حين نتجه نحو الله ؟ الا يجب ان تفقد ثرواتنا كل ما لها من بريق وان نحكها حكا فلا تبقى سوى قاعدة يبرز من خلالها بوضوح الشخص الذي نعني به فقط ؟

قد نكتفي بالقليل من الزرقة السماوية في صورة حياتنا التي تحمل الكثير من البقع القاتمة . الله مستعد ليترك خارج حياتنا ، مستعد ان يحمل هذه الحياة كصليب ، لكنه لن يرضى بان لا يكون سوى مظهر من مظاهرها .

وايضا ، حين نفكر في غياب الله ، اليس حري بنا ان نتساءل من هو المسؤول عن غيابه ؟ نحمل المسؤولية لله دائما ، نتهمه دائما ، امام الاخرين او في حضورهم نتهمه بانه غائب ، بانه لا يكون موجودا حين نحتاج اليه ، بانه لا يجيبنا حين نكلمه . وفي بعض الفترات حينما نكون اكثر استعدادا « للتقوى » نقول بطلاوة في التعبير : « الله يمنحني صبري وايماني وتواضعي » ، ثم نجد كل انواع الدهاء لنحول الحكم الذي يصدره الله علينا الى شكل جديد من اشكال التغني بانفسنا . ونعتبر اننا على جانب كبير من الصبر بحيث نستطيع تحمل الله نفسه !

اوليس الحق معي ؟ بعد مرور وقت قصير على سيامتي كاهنا وفي ختام احدى العظات — وهي من العظات العديدة التي القيتها في كنيسة الرعية — جاءت فتاة لمقابلتي وقالت لي : « ايها الاب انطوان ، لا بد انك من كبار الخطاة ! فاجبتها :

— « انت لست على خطأ ولكن كيف عرفت ذلك ؟ » .

— « انك تجيد وصف خطايانا الى حد لا يسعنا معه الا الاعتقاد بانك ارتكبتها جميعا ! » .

coptic-books.blogspot.com

وبديهي أن هذه اللوحة القاتمة التي رسمتها لكم عن الافكار والمواقف السيئة تعبر عن صورتي وليس عن صورتكم ، ولكن لعلكم ستتعرفون على انفسكم فيها ايضا ، هذه اللوحة ليس سوى غيض من فيض .

نقطة انطلاقنا اذا نحن شئنا ان نعرف كيف نصلي يجب ان تكمن في يقيننا باننا خطأة بحاجة الى فداء ، وباننا منقطعون عن الله وباننا لا نستطيع ان نحيى بدونه . كما يجب ان نكون مقتنعين بان كل ما نستطيع تقديمه لله انما هو رغبتنا الولهى في ان نسلمه انفسنا بحيث يستطيع ان يتقبلنا تائبين ، وان يستقبلنا في واسع رحمته وحبه . لذا فان الصلاة هي في الحقيقة ــ ومنذ البداية ــ ارتقاء بطيء نحو الله ، هي لحظة نتجه فيها اليه بدون ان نجرؤ على الاقتراب منه لاننا نعلم انه لو لاقيناه قبل الاوان ، اي قبل ان تأخذ نعمته الوقت الكافي لاعدادنا لهذا اللقاء، فسيكون الامر بالنسبة الينا كساعة الدينونة . وكل ما نستطيع ان نعمله هو ان نتجه اليه بكل ما اوتينا من قدرة على الاقدام والاجلال والعبادة والخشية ، بكل ما فينا من انتباه وجدية وان نساله ان يفعل فعله فينا كي نستطيع لقاءه وجها لوجه ، لا لدينونة ولا لمحاكمة بل لحياة ابدية .

بودي ان اذكركم بمثل الفريسي والعشار . دخل العشار الهيكل وظل في قصائه . هو يعلم بانه مدان . ويدرك انه في خاتمة المطاف ليس له اي رجاء بالنجاة لأنه غريب عن ملكوت الله ، ملكوت العدالة ، ملكوت المحبة ، ولأنه لا ينتمي لعالم العدالة او عالم الحب . لكنه خلال حياته البشعة المفعمة بالقساوة والعنف تعلم شيئا لم يكن لدى الفريسي اية فكرة عنه . تعلم انه في عالم تسوده روح المنافسة ، عالم من الوحوش الكاسرة ، عالم عات لا رحمة فيه ، يبقى ثمة رجاء بفعل فيه رحمة ، فعل فيه رافة ، فعل غير منتظر على الاطلاق وليس له ما يبرره سواء في قانون الواجب او في العلاقات الطبيعية ، فعل من شأنه ان يوقف تأثير العالم العاتي الذي لا يعرف الرحمة هذا العالم الذي نعيش فيه . كل ما يعرفه مثلا ــ وذلك لأنه هو نفسه مفسد ومراب وسارق الخ... ان ثمة لحظات كان يعمد فيها (بدون اي سبب لأن هذا ليس من العادات السائدة في هذه الدنيا) ان يترك دينا

coptic-books.blogspot.com

له لأن قلبه قد رق فجأة وبات أكثر حساسية . ويعلم أنه في مناسبة اخرى لن يرمي باحدهم في غياهب السجون لأن وجهه قد ذكره بشيء او لأن توسلاته بلغت منه الفؤاد . ليس في كل هذا اي منطق . العالم لا يعمل على هذا النحو وهو لا يتصرف عادة بهذا الشكل . ثمة شيء انبثق فيه ، شيء ليس له مطلقا اي تبرير وليس ثمة مجال لرده ، ولعله يعرف ايضا بانه غالبا ما كان يتم انقاذه من الكارثة الاخيرة نتيجة انبثاق هذا الامر غير المنتظر ، هذا الامر المستحيل ، اي الرحمة والرافة والغفران . لهذا وقف في الهيكل مدركا بان كل الارجاء الداخلية لذاك المكان المقدس هي مملكة للعدل والمحبة ، مملكة لا ينتسب هو اليها ولا يستطيع دخولها . لكنه يعرف ايضا ان المستحيل ممكن الوقوع لذلك قال : « ارحمني ، لا تأخذ بعين الاعتبار قوانين العدالة ومبادىء الدين . اهبط الينا برحمتك ، نحن الذين ليس لنا حق بعفوك او حتى بدخول الهيكل ! » . اظن انه من هنا دائما يجب ان نعاود الانطلاق .

تذكرون ولا شك مقطعين مما اورده بولس الرسول حيث يقول : « قوتي في الضعف تكمن » . هذا الضعف ليس ذاك الذي نمارسه حين نخطىء او حين ننسى الله لكنه ذاك الذي يتمثل في الدماثة الكاملة والشفافية المطلقة والاستسلام الذي لا تحفظ فيه لله . تحاول معظم الاحيان ان نكون اقوياء ونمنع الله من التعبير عن قوته .

فكروا في الطريقة التي تعلمتم بها الكتابة حين كنتم صغارا . وضعت امكم بين اصابعكم قلما واخذت يدكم بيدها لتوجهها . وبما انكم تجهلون تماما مقاصدها ، تركتم يدكم مطواعة بين اصابعها . هذا ما اعنيه بقوة الله المتمثلة في الضعف . فكروا في شراع المركب . الشراع يتلقى الريح وبفضل رقته يسير المركب . فلو وضعنا بدل الشراع قطعة خشب لما تقدم المركب ، خفة الشراع هي التي جعلته حساسا على الهواء . نستطيع ان نقول الشيء نفسه عن قفاز الحديد او قفاز الجراح ، الاول متين ، لكن الثاني على ليونته يمكنه ان يجّرح العجائب ، ان تيسرت له اليد البارعة . لذلك فان من الاشياء التي لا يكل الله عن تعليمنا اياها هي دعوتنا لوضع الاستسلام اللين

coptic-books.blogspot.com

لمشيئته في مكان ما نملكه من قوة خيالية واهية تعكر صفونا . واليكم على ذلك مثال :

قبل خمس وعشرين سنة قتل احد اصدقائي في معركة تحرير باريس وكان ابا لولدين . كان ولداه يكنان لي كل كراهية بسبب شعورهما بالغيرة من صداقتي لوالدهما ، ولكن بعد مصرع الوالد اتجها الي بفعل هذه الصداقة نفسها . ذات يوم جاءت ابنة صديقي وكانت في الخامسة عشرة لمقابلتي في اوقات المعاينة الطبية ، اذ كنت طبيبا قبل ان اكون كاهنا ، وابصرت الكتاب المقدس موضوعا على مكتبي الى جانب الادوات الطبية . وبكل ثقة الشباب قالت لي : « لا افهم كيف ان انسانا يعتبر نفسه مثقفا يؤمن بهذه الترهات ! » فسألتها : « هل قرأت الاناجيل ؟ » فاجابت بالنفي . عندها قلت لها : « الاغبياء وحدهم يحكمون على ما يجهلون » ، وعلى الفور بدأت قراءة الانجيل واخذت بها الى حد تغيرت معه حياتها اذ بدأت تصلي ، كما ان الله اختبرها بحضوره لبعض الوقت . بعد ذلك اصيبت بمرض عضال فكتبت لي وكنت قد اصبحت كاهنا في انكلترا : « منذ بدأ جسدي يضعف ويتلاشى ، اصبحت نفسي اكثر توقدا من اي وقت مضى . وفيض لي ان اشعر بحضور الله بكثير من السهولة والفرح » . واجبتها : « حين تخور قواك اكثر ، سوف تفقدين الطاقة على الاتجاه نحو الله او الاندفاع اليه وستشعرين ان درب الله قد اقفل دونك » . لم يمض وقت طويل حتى كتبت لي من جديد تقول : « صحيح ! اصبحت الان من الضعف بحيث انني لا اقوى على بذل اي جهد للاتجاه نحو الله ولا حتى للرغبة فيه بحيوية ، الله قد اختفى ! » فاشرت عليها بقولي : « حاولي ان تتعلمي التواضع بالمعنى الحقيقي والعميق للكلمة » .

كلمة تواضع تعني بأصلها اللاتيني humus الارض الخصبة. والتواضع بالنسبة الي لا يعني ، كما يظن غالبا ، ذلك الجهد المرتبك الذي يبديه من يبغي اقناع نفسه بانه ادنى من باقي الناس ، واقناع الناس بان سلوكه شبه الطبيعي هذا يعبر عن يقينه ذاك . التواضع هو حال تراب الارض . التراب دائما هنا او هناك ، ما من احد يفكر فيه ، جميع الناس يطأونه باقدامهم . وهو المكان الذي يتلقى

coptic-books.blogspot.com

كل النفايات والفضلات . ويبقى التراب في مكانه بصمت راضيا بكل شيء محولا كل هذه النفايات المنحلة الى ثروة جديدة وعلى نحو عجائبي . يحول الفساد نفسه الى خميرة صالحة لحياة جديدة ، قادرة على استقبال اشعة الشمس وهطول الامطار ، مستعدة لتلقي كل بذرة ، قادرة على ان تنتج ثلاثين بل ستين بل مئة ضعف اكثر مما تأخذ . كتبت لهذه السيدة الشابة : « تعلمي ان تكوني كذلك في حضرة الله ، مستسلمة ، صاغرة ، مستعدة لتلقي اي شيء منه ومن البشر » . ولم يبخل عليها البشر في الواقع ابدا ، اذ لم تمر شهور ستة حتى تخلى عنها الزوج بعد ان ضاق ذرعا بتحمل امراة مريضة . لكن الله لم يضن عليها بنوره ونداه ولم تتأخر في مكاتبتي لتقول : « استنفدت جميع السبل ، ولم يعد في مقدوري الاتجاه نحو الله لكنه هو الذي ينزل الي الان » .

تعبر هذه القصة بالضبط عما اردت ان اقوله ونعززه بمثال ، فيها نرى الضعف الذي يعبر فيه الله عن قدرته والظروف التي يمكن فيها لغياب الله ان يكون بمثابة حضور له .

ليس بامكاننا الاستيلاء على الله ، لكننا في كل مرة — على غرار ذاك العشار وتلك المراة — نقف فيها خارج ميدان « الحق » وداخل ميدان الرحمة وحده ، يصبح بامكاننا ملاقاة الله .

حاولوا ان تفكروا في غياب الله واعلموا انه قبل ان تستطيعوا قرع الباب — وتذكروا هنا باننا لا نقصد باب الملكوت فقط بمعناه العام ولكن بالمعنى الذي قصده المسيح حين قال انا هو الباب — عليكم ان تدركوا انكم وراء هذا الباب . فاذا امضيتم وقتكم في التصور بانكم قد اصبحتم داخل ملكوت الله ، فلا مبرر لتقرعوا اي باب ، اذ يصبح من الافضل ان تتطلعوا في ما حولكم لتكتشفوا مقر الملائكة والقديسين والمكان الذي خصص لكم . فاذا لم تبصروا سوى الظلام والجدران الكالحة فكيف لكم ان تعجبوا ان رايتم الفردوس غير جذاب ؟ ينبغي ان نقنع انفسنا باننا لسنا بعد في السماء ، وباننا خارج ملكوت الله ونسأل انفسنا : « اين هو الباب وكيف يجب ان نقرعه ؟ » .

coptic-books.blogspot.com

وسنحاول في الفصل المقبل ان نغوص اكثر في معضلة هذا الباب الذي يجب ان نقرعه ، وفي نوع الجهود التي يجب ان تبذل من اجل ان نجتازه ونصبح مواطنين في السماء ، ذاك المكان الذي تصبح فيه الصلاة ممكنة .

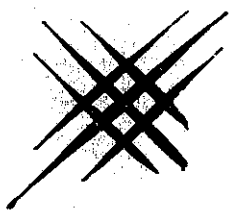

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

الفصل الثاني

كيف نقرع الباب

كما ذكرت وانا اتحدث عن الطريقة ـــ غير الموضوعية بالطبع وانما الذاتية ـــ التي بها نفهم غياب الله ، طالما اننا لا نعي كوننا خارج الملكوت وان علينا ان نقرع الباب ليؤذن لنا بالدخول ، طالما نحن كذلك فاننا ميالون للاعتقاد خلال جزء من حياتنا باننا موجودون في الداخل وبدون ان نبلغ العمق حيث يظهر لنا الله في اوج بهائه وحقيقته ومجده .

حين اقول اننا غرباء عن الملكوت ، فلا اعني بذلك اننا لا نعرف سوى حالين فاما ان نكون داخل الملكوت واما ان نكون خارجه ، فالمسألة في الواقع مسألة ارتقاء مستمر من عمق لآخر او ان شئنا من قمة لقمة بحيث نكون عند كل خطوة قد امتلكنا شيئا ثمينا وعميقا ، دون ان نفقد رغبتنا في بلوغ المزيد من العمق والغنى. ان ملاحظتي هذه على جانب من الاهمية لأننا حتى لو كنا لا نزال خارج الملكوت ، فنحن مع ذلك على جانب عظيم من الغنى . فالله قد اعطانا الكثير ، اذ اننا مشبعون بالثروة الفكرية والعاطفية الى حد نشعر معه بانفسنا ممتلئين كل الامتلاء ، وقد بلغنا درجة الكفاية

coptic-books.blogspot.com

المطلقة واصبحنا على ابواب المرحلة الاخيرة من مراحل سعينا . علينا ان ندرك ان امامنا المزيد مما يجب الحصول عليه . وهذا لا يمنع من ان نشعر بالغبطة لغنانا الكبير مهما بلغت درجة فقرنا ، ولا ننسى اننا يجب ان نصبو لنيل الخيرات الحقيقية في الملكوت ، حريصين على الا نبهر بما صار في حوزتنا مخافة ان تعمى ابصارنا عما هو معروض امامنا .

ولا يغرب عن بالنا ان كل شيء عطاء من لدنه . التطويبة الاولى تتعلق بالفقر . وليس بوسعنا ان ندخل ملكوت الله الا اذا عشنا هذه التطويبة التي تنطوي على جانبين . من البديهي اولا اننا لا نملك شيئا يمكننا الاحتفاظ به ، شئنا ام ابينا . يعني ان علي ان اكتشف بانني لا املك شيئا وبانني لست شيئا ، ان اكتشف الفقر الكلي الذي لا شفاء منه ولا مخرج له . نحن موجودون لأن واحدا شاء ان نوجد فوهبنا الحياة . ولا حيلة لنا في الامر ، وليس لارادتنا الحرة اي مجال للتدخل . فنحن لا نملك الحياة الى حد لا يمكن معه انتزاعها منا ، وكل ما نحن عليه وما نملكه هو من هذه الجهة وقتي . لنا جسد ، لكنه فان . لنا عقل ، لكن يكفي ان ينفجر شريان صغير في الدماغ حتى تنطفىء جذوة اعظم عبقرية . لنا قلب مفعم بالاحساس والحرارة ، ولكن اذا شئنا ان نعبر عن كامل تعاطفنا وتفهمنا تجاه من يحتاج الى ذلك ، فقد يأتي وقت نتحول فيه لالواح جليد .

بوسعنا القول على نحو ما باننا لا نملك شيئا لاننا لسنا ممسكين زمام شيء مما هو في حوزتنا . استنتاج كهذا ليس من شأنه ان يقودنا لوعي حقيقة كوننا ننتسب لملكة الله ، لكن قد يؤدي بنا الى اليأس في ما لو غرب عن بالنا ان هذه الاشياء تخصنا رغم كل شيء ، تخصنا بدون ان تبلغ درجة امتلاكها حدا لا يمكن معه انتزاعها منا . ذلك هو الجانب الثاني لتطويبة الفقر : نحن اغنياء وكل ما نملكه هبة ، ودلالة على محبة الله ومحبة بني البشر ، هبة مستمرة من الحب الالهي . وطالما اننا لا نملك شيئا ، فان محبة الله تتمثل لنا بلا انقطاع وبصورة كاملة . لكن كل ما نمسك به من اجل الاستيلاء عليه انما هو مأخوذ من مملكة المحبة . والخيرات التي

coptic-books.blogspot.com

نجنيها بهذه الطريقة تصبح في الواقع ملكا لنا ، لكنها تسبب لنا ضياع المحبة على الفور . وحدهم اولئك الذين يعطون كل شيء ، يتلقون وحي الفقر بالروح بصورة صادقة تامة ونهائية ، غير قابلة للزوال ، كما يمتلكون محبة الله التي تعبر عنها جميع هباته . يقول احد لاهوتيينا : « كل غذاء في هذا العالم هو حب الهي تحول للاستهلاك » . انا شخصيا مقتنع بذلك ، وحالما نبدأ السعي وراء الثروة متشبثين بما هو بين ايدينا بروح من الغيرة ، فسوف نكون من الخاسرين . فقط عندما تصبح ايدينا فارغة نضحي قادرين على ان نأخذ هذا الشيء او نتخلى عن ذاك ، ان نعمل اي شيء نريده . وهذا هو الملكوت ، ان نشعر اننا متحررون من كل ملكية وبأن هذه الحرية تدخلنا في اطار علاقة كل شيء فيها محبة — محبة انسانية ومحبة الهية .

لو تطلعنا بهذا المنظار ، اصبح من اليسير علينا ان نطبق التحليل نفسه بالنسبة لما اتينا على ذكره اعلاه . نحن اغنياء ، هذا واقع . على انه لا ينبغي لثرواتنا ان تقودنا للانزلاق الى حد نقتنع فيه بضرورة تدمير الحواصل القديمة وبناء حواصل جديدة اكثر اتساعا ، فيها نختزن المزيد من الثروات . لا شيء يمكن اختزانه ، لا شيء خارج ملكوت الله ، لهذا يمكننا ان نتخلى عن هذا الشيء او ذاك من اجل ان نسير الى الامام بحرية اكبر ، وبعد ان نتحرر من كل ثروة . او لم تلاحظوا ابدا ان الغنى هو دائما مجلبة للفقر على صعيد آخر ؟ يكفي ان اقول : « عندي هذه الساعة ، فهي تخصني » واطبق يدي عليها كي اكون قد ربحت ساعة وخسرت يدا . ولو اطبق المرء عقله على ممتلكاته ، او لو انه اوصد قلبه ليحمي كل ما في الداخل ويحافظ عليه ، فانه سيتقلص ليصبح في حجم الشيء الذي اقفل دونه الابواب .

لو كان كل ما سبق صحيحا ، فاننا ما ان نلامس اعماق انفسنا، ونعي اننا تخلينا عن كل شيء ، حتى نجد انفسنا على عتبة ملكوت الله ، وعلى وشك الاكتشاف بان الله محبة ، وبان هذه المحبة تحتضننا . عندها يصبح بامكاننا وفي آن معا ، ان ننادي الله بأعلى صوتنا من صميم جذور بؤسنا ، وشقائنا ، وفقرنا وان نغتبط لكوننا

coptic-books.blogspot.com

اغنياء بالحب الالهي . لكن الامر ليس ممكنا الا اذا كنا على وشك اكتشاف محبة الله . وفي الواقع ، طالما اننا نظن انفسنا اغنياء ، فليس ثمة مبرر لتوجيه الشكر لله ولا نستطيع ان نعرف ما اذا كنا حائزين على محبته . ان شكرنا لله هو في معظم الاحيان ، كالمفتاح العمومي يستخدم في كل مجال ، كذلك ايضا التوبة التي نتوجه بها اليه .

مررت شخصيا بهذه التجربة على نحو وضيع بعيد عن الروحانية حين كنت في الخامس عشرة من عمري . في احدى رحلاتي وقت مسيرتي بشكل دقيق على امل الوصول الى بيت بعض الاصحاب في ساعة الغداء تماما بحيث يصبح من المتعذر ان اوجد بينهم ولا اتلقى دعوة لتناول الطعام ، وتأخر وصول القطار الذي استقليته فأدركت المنزل بعد وقت الطعام وكنت اتضور جوعا . لم اكن لأستطيع ورفيقي ان نتابع طريقنا دون ان نأكل لشدة ما كنا جائعين . وطلبنا الى مضيفينا بعض الطعام فأجابوا : « بقي لنا نصف خيارة فقط » ونظرنا الى الخيارة ثم تطلع واحدنا نحو الاخر قائلا في نفسه : « اهذا كل ما عثر عليه الله ليقدمه لنا » . وقال صديقي على سبيل الاقتراح : « حسنا ! فلنتل صلاة المائدة ! » وقلت في نفسي : « من اجل خيارة ! » كان صديقي اعمق ايمانا وافضل مسيحية مني . هكذا اتممنا خدمة الساعة التاسعة وتلونا بعض الصلوات الاخرى بما فيها صلاة ما قبل الطعام . وشعرت بصعوبة بالغة اثناء الصلاة في تحويل فكري عن نصف الخيارة التي لا يحق لي ان اتناول اكثر من نصفها . اخيرا شطرنا نصف الخيارة الى نصفين واكل كل منا نصيبه . لم يعترني قط من قبل شعور بالامتنان نحو الله الى هذا الحد . تناولت نصيبي من الخيارة وكأنني اتناول غذاء مقدسا . تذوقته بخشوع ديني كيلا افقد شيئا من طعمه ونضارته . وما ان انتهت وليمتنا حتى اقترحت بصورة عفوية : « لنتل صلاة الشكر ! » وعدنا الى الانطلاق بقوة هذه الصلاة .

ليس بوسعنا ان نعرف حياة الصلاة ، وليس بمقدورنا ان نقترب من الله ما لم نكن متحررين من كل ملكية بحيث نقدم اليه راحتين مبسوطتين وقلبا مفتوحا (شرط الا نقدمها كصرة نخشى ان

coptic-books.blogspot.com

يضيع منها المال لو تركت مفتوحة وانما كصرة مفتوحة فارغة) وكذلك عقلا قادرا كل القدرة على استقبال كل شيء مجهول غير منتظر . تلك هي الطريقة التي بها نكون اغنياء في نفس الوقت الذي نكون فيه طلقاء تماما تجاه الغنى . وتلك هي اللحظة الدقيقة التي يمكننا القول فيها اننا خارج الملكوت ، واننا اغنياء في نفس الوقت ، كما نقول اننا داخل الملكوت ، ونحن نتمتع بكامل حريتنا في آن معا .

الامر صحيح بالنسبة للصوم مثلا . وهنا لا اقصد حالة الصوم والقطاعة التي لا تؤثر على غير المعدة ، وانما اعني موقف التعفف الذي يسمح لنا او يفرض علينا الا نكون عبيدا لأي شيء . ان موقفا كهذا من شأنه ان يتناول كل سلوكنا في الحياة . فهو يعني مخيلتنا اولا بمقدار ما تعتبر هذه المخيلة مكانا من الامكنة التي تبدأ فيها الخطيئة . يقول احد كتابنا الارثوذكسيين من القرن التاسع ان خطايا الجسد هي تلك التي يرتكبها العقل بحق الجسد . فليس الجسد هو المسؤول ، واظن ان علينا في هذا الصدد ان نمسك بزمام مخيلتنا . طالما ان هذه المخيلة لا تسيطر علينا فان الاشياء تبقى خارجا عنا . ولكن ما ان ترتبك المخيلة بهذه الاشياء وتصبح اسيرة لها ، حتى نصبح لاصقين فيها . نعلم بان هناك انواعا من الاغذية كاللحم والخضار والحلوى الخ... ، نعرف ذلك كواقع موضوعي . فاذا جلسنا وقلنا : « انا لست في الحقيقة جائعا لكن كثيرا من الطيبات تبدو امامي ! فما الذي سأتناوله اذا ؟ » يمكننا عندئذ وفي غضون دقائق خمس ان نشهد آلاف الامتدادات تتجه منا الى كل الجهات . ويصبح مثلنا كمثل « جوليفر » حين علقت قدماه في الارض بشعرة ثم باخرى ثم بثالثة . لو اخذنا كل شعرة من هذه الشعرات على حدة لوجدناها لا تساوي شيئا لكن مجموعها يكون رابطا متينا . ونحن ما ان نطلق العنان لمخيلتنا حتى يصبح كل شيء امامنا اكثر صعوبة . لهذا ينبغي ان نكون قانعين ومكافحين من اجل ان نكون احرارا . هناك فارق كبير بين التعلق والحب ، بين الجوع والشراهة ، بين الاهتمام الحيوي والفضول الخ... ان كل ميل من ميولنا الطبيعية له ما يقابله من نزعة مدموغة بطابع الشر ، نزعة من شأنها ان تقود بالتالي الى طريق العبودية . فكيف لنا ان نقطع هذه الامتدادات ؟ ينبغي في البداية ان نقول لا . واذا لم نقلها في

coptic-books.blogspot.com

الوقت المناسب فلن نتمكن من تجنب العراك ، ولكن علينا الا نكون متراخين في الرفض لأن دخول الملكوت وحياة النسك هما اثمن من الملذات التي تطرح امام العبيد .

ينبغي لنا اذا ان نقرع احد الابواب . هنا يصبح الامر على جانب كبير من الجدية . فلو كان المقصود باب كنيسة لهان الامر ، يكفي ان نذهب الى الكنيسة ونطرق الباب . لكن الصعوبة ناجمة معظم الوقت من اننا لا نعرف اين يجب ان نقرع . كم من مرة نرى فيها الناس راغبين في الصلاة وهم يتساءلون : « لنر ! ما هي نقطة الارتكاز التي تقوم عليها صلاتي ؟ وبأي اتجاه ادير نظري وقلبي ؟ » الامر سهل بالنسبة للمسلم ، نراه يتجه نحو مكة . ولكن في مثل هذه الحال ما الذي يجب ان يفعله بعدما يستدير نحو القبلة ؟ فليس بوسعنا ان نركز انتباهنا على اشياء هي دون الله . وما ان يحاول الانسان ان يركز انتباهه على اله خيالي او اله يمكن تصويره ، حتى يعرض نفسه لخطر تنصيب صنم من الاصنام بينه وبين الاله الحقيقي . وقد اشار القديس غريغوريوس النازيانزي الى هذه الناحية منذ القرن الرابع . كان يقول انه منذ اللحظة التي نضع فيها علامة مرئية قبالتنا ، وسواء كانت هذه العلامة مصلوبا او بيتا للقربان او ايقونة او كانت رسما غير مرئي حسبما نتصوره او المسيح كما يمثله رسم من الرسوم — منذ وضع هذه العلامة وتركيز انتباهنا عليها ، نكون قد وضعنا حاجزا بين الله وبيننا ، ونكون قد اعتبرنا الصورة التي صنعناها بانفسنا بمثابة الشخص الذي نتوجه اليه بصلاتنا . ان واجبنا ونحن نتجه الى الله ان نجمع كل ما نعرفه عنه ، على الا يغرب عن بالنا ان كل ما نعرفه عن الله هو من نتاج ماضينا وقد خلفناه وراءنا . ونجدنا الان في حضرة الله بكل تعقيده وبساطته ، ذاك الاله القريب الينا جدا والمجهول منا في نفس الوقت . ليس بوسع المجهول ان يظهر امامنا ، والله لا يمكن ان يكشف عن نفسه — ان يكشف عن نفسه امامنا كما يريد هو ، ونحن كما نحن عليه اليوم — لا يمكنه ذلك الا اذا كنا قادرين كليا على تقبله . لهذا فان علينا ان نمثل في حضرة الله بعقل وقلب ملؤهما الانفتاح ، دون ان نحاول اضفاء شكل عليه او حصره في مفاهيم وصور ، كما وعلينا ان نقرع بابا من الابواب .

coptic-books.blogspot.com

اين نقرع ؟ يقول الانجيل ان ملكوت الله موجود فينا قبل كل شيء . فاذا لم نستطع العثور على هذا الملكوت في داخلنا ، واذا عجزنا عن ملاقاة الله فينا ، في اعماق اعماقنا ، فلا بد وان يكون حظنا بملاقاته في الخارج ضئيل جدا . حين اطلق غاغارين بعد عودته من الفضاء تصريحه الشهير الذي قال فيه انه لم يعثر على الله في السماء ، فقد علق على كلامه احد كهنة موسكو بقوله : « اذا لم تصادفه على الارض ، فسوف لن تصادفه في السماء ابدا » . ذلك هو حالنا ايضا ، اذا لم نكن قادرين على الاتصال بالله في داخل جسدنا اذا صح التعبير ، داخل هذا العالم الصغير الذي هو كل منا ، فلن يكتب لنا الحظ في التعرف عليه حتى لو صادف ان التقيناه وجها لوجه . يقول القديس يوحنا الذهبي الفم : « جدوا باب قلبكم ، تروا انه الباب المؤدي لملكوت الله » . علينا اذا ان ندخل الى ذواتنا وليس الى مكان آخر ، ندخل الى ذواتنا ولكن بطريقة خاصة جدا . اذ لا ينبغي ان نغوص في عمليات الاستبطان او ان ننزل الى ذواتنا كما يريد التحليل النفسي وعلم النفس . فليس الامر بمثابة رحلة في حياتي الداخلية وانما هو مسيرة عبر ذاتي ، تمكنني من الظهور في اعمق مكان من كياني حيث يوجد الله نفسه ، في النقطة التي يلتقي فيها الله معي .

لقضية الصلاة الناشئة اذا وجهان : اولهما النزول الى اعماق النفس ، ومن ثم استعمال الكلمات اللازمة للصلاة والطريقة التي بها توجه هذه الصلاة .

وسأبدأ بهذه النقطة الاخيرة . الام والى من نصوب الاتجاه الدقيق لصلاتنا . نلاحظ معظم الاحيان ان الناس يصيحون باتجاه السماء ويعجبون ، اذ يلاحظون انها خاوية بدون صدى . الجواب لا يتأتى من هنا . يقول القديس يوحنا السلمي وهو كاتب لاهوتي من القرن السابع ، ان الصلاة والكلمات الخاصة بالصلاة هي اشبه بالسهم . ولكن لا يكفي ان يكون لدينا سهم . فاذا شئنا ان نصيب المرمى ، ينبغي ان يكون في حوزتنا قوس له حبل من نوع جيد وذراع متين لوتره . فلو كنا نملك القوس الجيد بدون القوة التي تسمح باطلاقه ، فسرعان ما يسقط السهم على بعد امتار . واذا

coptic-books.blogspot.com

لم نرم بما يكفي من جهد فسوف لن يبلغ السهم المرمى . ينبغي اذا ان يكون لنا قوس وسهم وذراع وقوة . وبما ان الصلاة هي سهمنا فان علينا ان نصوب في داخلنا الى اعمق نقطة حيث يوجد الله . ويجب من اجل هذا ان نوجه قوسنا نحو داخلنا حتى يصيبنا السهم في تلك النقطة الاكثر عمقا . كما يجب ان نسهر بالتالي على ان يكون السهم مستوفيا كل الشروط المطلوبة للانطلاق بقوة . معظم الاحيان ، نكون شاردين اثناء الصلاة ، فلا يكون قلبنا معها وصلاتنا لا تكون مسنودة على حياتنا . هنا ان شئتم نجد التشابه مع القوس والسهم والقوة .

ثمة لحظات نستطيع فيها ان نسعى للدخول الى داخل ذواتنا ونحن ندعو ذاك الذي هو في جذور كافة الاشياء وفي قلبها . عندها يمكننا ان نرى بوضوح الى اين نحن ذاهبون والى اي اتجاه ندير صلاتنا : ليس الى وراء ولا الى فوق ولكن الى ما هو اكثر فأكثر عمقا ، هذا رغم كل اشكال المقاومة التي نصادفها في الطريق ، رغم كل القياسات الفاسدة ، رغم كل ما يمنعنا من الولوج الى هذا العمق الاخير . عندئذ تصبح الصلاة ممكنة تمام الامكان في الوقت الذي تظل فيه رياضة شاقة صعبة .

من الواجب اذا في الدرجة الاولى اختيار نوع الصلاة . وهذه نقطة اساسية لا تقل اهمية عن استعمال الكلمات اللازمة حينما نريد ان نحقق اتصالا بأحد . ومهما كان نوع الصلاة التي نختارها ، فمن الضروري ان تعني شيئا بالنسبة الينا ، الا تجعلنا نتضايق . ارى من واجبي ان اعترف بان قراءة كتب الصلاة تزعجني معظم الاحيان . اذ اشعر بأنه لو كان الله ماثلا امامي واقعيا وحسيا ، فلن اتجرأ على ان اسرد على مسامعه تفاهات كهذه وان اقول له عن نفسه اشياء يعرفها منذ ما قبل ولادتي ! من الواجب اذا ان نقدم على اختيار ، فاذا كنتم في الواقع تخجلون من صلاتكم فان صلاتكم وذواتكم قد لا تعجب الله . وانتم ، لا تستطيعون ابدا ان تقدموا له صلاة صادرة من اعماق القلب . من الواجب اذا وقبل كل شيء ان تجدوا كلمات تكون جديرة بكم وجديرة بالله . اقول « جديرة بكم وجديرة بالله » لانه اذا كانت هذه الكلمات تعبر عنكم

coptic-books.blogspot.com

حقيقة فان بوسع الله أن يتقبلها . أما اذا كانت بخلاف ذلك فلا تزعجوا الله ، ذاك انه سمع صلوات افضل منها . لا يعني هذا ان علينا ان نبحث عن كلمات عجيبة . فان من مخاطر الصلاة ان نسعى لايجاد الكلمات التي هي بمستوى الله ان صح القول . ولكن للاسف بحيث انه ما من احد منا في مستوى الله ، لن نعرف ماذا نقول وسنضيع الكثير من الوقت ان نحن حاولنا ايجاد الكلمات الملائمة .

وبدون ان ادعي استنفاد الموضوع ، بودي ان ابرهن بقصة على قيمة فعل العبادة وقيمة كلمات العبادة . نعثر في حياة موسى كما ترويها السيرة العبرانية على فقرة مميزة . التقى موسى في الصحراء راعيا ، امضى معه النهار وساعده في حلب نعاجه . عند المساء ابصر بالراعي يصب اجود حليبه في قصعة وضعها فوق حجر على مقربة من المكان الذي كانا فيه . فساله موسى لمن هذا الحليب ، فأجابه الراعي : « هذا الحليب لله » . وعجب موسى للأمر والح عليه أن يوضح ، فقال له الراعي : « دائما اضع جانبا اجود الحليب واقدمه لله » . وسأل موسى وكان اكثر وعيا من الراعي في ايمانه الساذج : « والله هل يشربه ؟ » فاجاب الراعي : « نعم » . ورأى موسى من واجبه ان ينير عقل الرجل المسكين فشرح له ان الله روح خالصة ولا يمكنه ان يشرب الحليب . وبما ان الراعي رفض ان يصدق اثر نقاش قصير ، فقد اقترح عليه موسى أن يختبىء وراء الشجيرات ليشاهد بأم عينه ما اذا كان الله يأتي حقا ليشرب الحليب . واختبأ الراعي ثم هبط الليل . وفي ضوء القمر ابصر ثعلبا صغيرا قادما من الصحراء يسير الهوينى . وبعد ان تطلع يمنة ويسرة انقض الثعلب على القصعة وولغ ما فيها بنهم ثم قفل عائدا الى الصحراء . في صبيحة اليوم التالي وجد موسى صاحبه يائسا فسأله : « ما الذي لا يسير على ما يرام ؟ » فتنهد الراعي وقال : « كان الحق الى جانبك فالله روح خالصة ولا يرغب في حليبي ! » فتعجب موسى وقال : « يجب ان تفرح اكثر ! فقد بت تعرف المزيد عن الله قياسا على ما كنت عليه قبل ايام ! » فأجاب الراعي : « اجل . لكن السبيل الوحيد الذي كنت اعبر به عن حبي قد ضاع ! » وادرك موسى الامر حينئذ وقصد الى مكان

coptic-books.blogspot.com

منعزل وراح يصلي بكل قواه . وظهر عليه الله اثناء الليل وقال له : « لقد اخطأت يا موسى . فصحيح انني روح خالصة ، لكنني كنت اقبل بسرور الحليب الذي قدمه الراعي تعبيراً عن حبه . وحيث انني لم اكن بحاجة لهذا الحليب فقد كنت اتقاسمه وذاك الثعلب الصغير الذي يستلذه » .

حاولت في البداية ان اثبت لكم ان صلاتنا ينبغي ان توجه الى داخل ذواتنا ، وليس نحو اله السماء او اي اله بعيد ، ينبغي ان توجه لاله هو اقرب الينا مما نتصور . ثم ان تكون الخطوة التالية في الصلاة هي اختيار الكلمات التي تعبر حقا عمن نحن ، كلمات لا نخجل منها ، كلمات خليقة بنا ، كي نقدمها بعدئذ لله بكل ما اوتينا من ادراك . فالواجب ايضا ان نضع كل قلبنا في فعل العبادة وفعل الاعتراف بالله ، وفعل المحبة التي تعني نشاطا يستحوذ على كامل عقلنا وقلبنا ، نشاطا يعبر تماما عن حقيقتنا .

سأقترح عليكم اذا في الدرجة الاولى ان تبحثوا عن اية كلمات ترون انفسكم ميالين لتقديمها لله اثناء الصلاة ، سواء اتت هذه الكلمات منكم ام من الاخرين . اسألوا انفسكم ايضا الى اي حد ترون انها تبلغ قلوبكم ، والى اي حد بوسعكم تركيز عقولكم عليها ، ذلك انه اذا لم يكن بامكانكم الاصغاء لما يصدر عنكم من كلمات ، فلماذا تطلبون ذلك من الله ؟ كيف له ان يتقبلها كتعبير عن حبكم اذا لم تتلفظوا بها بكل جوارحكم واكتفيتم بأن تضعوا فيها مقدارا من المجاملة واللهو .

اذا تعلمتم استخدام صلاة تختارونها انتم وفي فترات يمكنكم فيها ان تشدوا كل اهتمامكم باتجاه الحضور الالهي ، واذا قدمتم الى الله هذه الصلاة ، فستلاحظون تدريجيا ان معنى الله ينمو لديكم ، اذ يصبح بوسعكم سواء كنتم مع الاخرين تحدثونهم او تصغون اليهم او كنتم وحدكم مستغرقين في عمل من الاعمال ، يصبح بوسعكم اذ ذاك متابعة الصلاة . وفي هذا الصدد يلجأ كتابنا اللاهوتيون الى تشبيهين :

coptic-books.blogspot.com

الاول ، بسيط وحسي جداً يبدو لي شديد الدلالة ، مأخوذ عن ثيوفانوس المعتزل وهو واحد من كبار قادتنا الروحيين : « ليكن معنى الله في نفوسكم كنوبة من وجع الاسنان » . حينما نصاب بنوبة الم في اسناننا ، يصبح من المتعذر علينا نسيانها . فسواء تحدثنا او قرانا او ضربنا الارض او غنينا او قمنا بأي عمل ، فان نوبة الاسنان دائما معنا ، لا تنقطع عن النخر وليس في مقدورنا التخلص من الالم الذي تحدثه . ويضيف بأن على قلبنا ان يعذبنا اكثر فأكثر . ولا يعني هنا بالطبع قلبنا النابض في الجسد ، وانما يقصد ذاك الالم الذي — في اعماق اعماقنا — ما هو الا ظمأ وله بالله ، ما هو الا شعور بالشدة — « انا وحيد ، اين هو ؟ » — منذ اللحظة التي نفقد فيها اي اتصال معه في الصلاة .

اما التشبيه الثاني وهو اقل واقعية ، فيشير الى انه حين يقبل علينا سرور كبير او حزن كبير فليس بمستطاعنا ان ننساهما طيلة النهار . نصغي لمحدثينا ونعمل ونقرأ ونقوم بما يجب ان نعمله ، لكن الاحساس بألم المصيبة او بشعور الفرح او انتظار البشرى السارة ، كل ذلك لا يغرب عن بالنا ابدا . وهذا ما يجب ان يكون ايضا بالنسبة لحضور الله ، فلو كان دائم الحضور كالألم او الفرح فمن الممكن لنا ان نصلي ونحن نقوم بعمل آخر . بوسعنا ان نصلي ونحن نقوم بعمل يدوي ، كما يمكننا ان نصلي بمعية اشخاص آخرين ونحن نصغي لحديثهم ، كذلك نصلي وسط حديث او مناقشة . ولكن كما سبق وقلت ، لا يأتي كل هذا دفعة واحدة ومن الضروري على ما اظن ان نتدرب على اكتساب موقف الاحترام والعبادة . لكم نتعرض اثناء الصلاة لتشتت الذهن فننتقل من حالة الانتباه حينا الى حالة الحلم حينا آخر . لنبدأ بتعلم هذا الانتباه الخاص بالصلاة ، ذاك الاستقرار الكامل ، وتلك العبادة الملأى بالاحترام ، وذاك الاستسلام لله ، لنتعلم كل هذا اولا في الوقت الذي نستطيع فيه ان نقوم بذلك بكل عقلنا وقلبنا . وسيصبح بمقدورنا بعدئذ ان نسعى للقيام بالشيء نفسه في مناسبة اقل ملاءمة .

سنتابع بحث هذا الموضوع في الفصل المقبل مبينين كيف يمكننا

coptic-books.blogspot.com

اختيار صلاة واحدة او اثنتين ، وكيف نستطيع بواسطتهما ان نصل الى اعماق اعماقنا حيث يقيم الله . سأحاول كذلك ان افسر لكم كيف يمكن الانسان ان يلج الى نفسه فذلك يعتبر تمرينا جديدا . لا تنسوا مثال الثعلب ، فقد يكون شديد الفائدة في حياة الصلاة . وبما اننا بصدد الحديث عن الثعلب — فاذا كنتم تريدون حقا ان تتعلموا كيف تصبحون اصدقاء لله ، اسألوا ذاك الذي ورد ذكره في كتاب الامير الصغير لمؤلفه سان اكزوبري وفيه يتحدث عن كيفية توطيد الصداقة مع انسان مرهف الحس ، سريع التأثر ، شديد الحياء .

coptic-books.blogspot.com

الفصل الثالث

الرجوع الى انفسنا

رأينا ان من اهم القضايا التي تجابهنا وتستوجب منا حلا هي : الى اي جهة نوجه صلاتنا ؟ واقترحت توجيه هذه الصلاة الى نفوسنا . اذ ليس بامكاننا ان نوجهها لله ما لم تتخذ بالنسبة الينا قيمة ومعنى . فاذا تلوناها بذهن مشتت ، واذا لم يرتعش فؤادنا بالكلمات التي تنطق بها شفاهنا ، او اذا لم تكن حياتنا متجهة بنفس اتجاه صلاتنا ، فان هذه الصلاة لن تصل الى الله . لذلك فمن الواجب في البداية ان نختار الصلاة التي نستطيع تلاوتها من كل قلبنا ومن كل عقلنا وارادتنا ، صلاة لا تكون بالضرورة نموذجا من نماذج الليتورجيا بل ان تكون حقيقية تعبر بشكل وافٍ عما نريد ان نقوله . ومن الواجب ايضا ان نفهم تلك الصلاة بكل ما تنطوي عليه من غنى ودقة .

اما بالنسبة لاختيار الالفاظ فهنالك ثلاثة احتمالات يمكن ان نقف امامها . فبوسعنا ان نلجأ للصلاة العفوية التي تنبعث من الروح . وبوسعنا ان نتلو صلوات نطقية قصيرة جدا يكون لها محتوى شديد الكثافة وتتخذ دلالات متعددة . ويمكننا اخيرا ان نلجأ الى ما نسميه

coptic-books.blogspot.com

احيانا بنفور الصلوات الجاهزة ، وفيها السطحيات المخصصة للاجابة عن كل المواقف ، كما تشمل الصلوات المعبرة عن تجربة القديسين الحميمة تلك التي جعلها الروح القدس في داخل حياتهم وقلوبهم . وبودي هنا ان اقول كلمات موجزة عن كل نوع من هذه الصلوات .

الصلاة العفوية ممكنة في حالتين : في اللحظات التي ندرك فيها الله ادراكا عظيما الى درجة نجد معها انفسنا مندفعين للرد عليه بالعبادة والفرح وسائر المشاعر التي تخالجنا حينما نلاقي الاله الحي . وكذلك حينما نعي فجأة الخطر العظيم الذي نتعرض له عندما نقدم انفسنا لله ، فنناديه من اعماق يأسنا وتعاستنا وفي عمق اليقين بانه وحده القادر على انقاذنا .

يمثل هذان الموقفان اقصى طرفين : الرؤيا التي نحملها عن انفسنا بدون الله حين نكون وحيدين متعطشين له عاجزين رغم ذلك عن الوصول اليه ، او السعادة التي تغمرنا حين نجد انفسنا فجأة في حضرته فنتمكن اذ ذاك من اداء الصلاة بعفوية . عندها لا يعود للكلمات اية اهمية نسبيا . ويمكننا الا نقول شيئا غير ان نردد : « يا لفرحي ! يا لفرحي ! » ففي لحظات كهذه تفقد الكلمات اهميتها ، ويقتصر عملها على القيام بدور مساند لاستعدادنا الداخلي . ونعبر فيها عن حبنا وتعاستنا بالفاظ تبدو صيغة المبالغة فيها كما يبدو جنونها مضحكين في الحالات العادية . تذكرون في الانجيل ساعة التجلي حين عرض بطرس على المسيح هذا الاقتراح : « لنصنع ثلاث مظال ، واحدة لك وواحدة لموسى وواحدة لايليا » . ويوضح الانجيلي ان بطرس في غمرة اضطرابه لم يكن ليدرك ما يقول . فقد عاش مشهدا اخذ بلبه مأخذا كبيرا اضطر معه — وبدون تفكير — ان يعلن عن اول خاطرة اتت على باله ، خاطرة تعبر الى حد ما عن انطباعاته الآنية في تلك اللحظة .

اذا كنا نظن باننا قادرون على الصلاة بعفوية طيلة حياتنا ، فلا بد وان نكون قد وقعنا ضحية الاوهام . فالصلاة العفوية تنبع من القلب وليس من صنبور نفتحه ساعة نشاء . كما تنبعث من اعماق النفس ، وكذلك من شعورنا بالغبطة او احساسنا باوقات

coptic-books.blogspot.com

الشدة ، وليس في المواقف المعتدلة التي لا يتملكنا فيها الحضور الالهي ولا يتملكنا فيها وعينا لما نحن عليه او للموقف الذي نكون فيه . اذ من غير المجدي في حالات كهذه ان نسعى لاداء الصلاة العفوية . فثمة في الحياة فترات لا يكون الانسان فيها موجودا في عب الموج ولا في السماء السابعة وعليه واجب الصلاة مع ذلك . في وقت كهذا تقام الصلاة بدون حماس وبفعل العقيدة البحتة . ذلك امر عظيم الاهمية لأن الكثيرين من الناس يبدأون حياتهم في الصلاة وهم على يقين بأنهم ما لم يتلوا عبارات الصلاة وكلماتها بحرارة ، فلا بد وان يكونوا مفتقرين للاخلاص . ليس هذا صحيحا ، لأن بوسع الانسان ان يكون مخلصا كل الاخلاص لجهة صفاء ذهنه واستقامة ارادته ، في حين لا تعبر كلماته وحركاته دائما عما يشعر به .

ويمر بخاطري مثال . اذا كنتم تعيشون حياة عائلية وتعملون خارج المنزل ، فمن المحتمل لديكم اذا كان نوع عملكم مرهقا ان تعودوا الى البيت منهكي القوى . فاذا طرح عليكم في مثل هذا الظرف امكم او شقيقتكم او والدكم او اي فرد من افراد العائلة هذا السؤال : « هل تحبني ؟ » ستجيبون : « نعم » . واذا لج مخاطبكم بسؤالكم : « اتحبني حقا وفي هذه اللحظة بالذات ؟ » فقد تجيبونه بكل صراحة : « كلا لا اشعر الا بظهري المتيبس وتعبي الشديد » . لكنكم لن تكونوا بعيدين ايضا عن الاخلاص لو قلتم : « احبك » لانكم تدركون ان في ما وراء التعب يسري في عروقكم تيار جارف من الحب . وعندما يقول المسيح : « من احبني يحفظ وصاياي » فهو لا يعني : « اذا كنتم تحبونني ، فستمضون من طرب لاخر ، ومن نشوة لاخرى ، ومن رؤيا لرؤيا ثانية » . بل يقول فقط : « لو آمنتم بكلامي فعليكم ان تحيوا به وتعيشوا عليه » . يعني العيش فوق امكانيات الانسان كما يعني العمل فوق ما يحلو لنا ان نعمل بصورة عفوية .

ينبغي اذا ان نجد الصلاة التي لا تكون عفوية بل تكون رغم ذلك ناشئة بالحق من ايماننا . وبوسعنا ان نتمسك في الصلوات العديدة المتوفرة من مخزن الصلوات التي ابصرت النور في معارك

coptic-books.blogspot.com

الايمان ، تلك التي صنعها الروح القدس وتقدم نفسها الينا كالمزامير مثلا . كما نستطيع ان نختار صلوات موجزة او مطولة من الكنز الليتورجي لجميع الكنائس . والمهم ان نتعلم ونتعرف على عدد كبير منها حتى نتمكن — في الوقت الذي نريد — من ايجاد الصلاة المناسبة ، ونحفظ عن ظهر قلب النصوص ذات الدلالة للمزامير والقديسين . لكل منا احساس ببعض النصوص فسجلوا تلك التي تحدث صدى عميقا في نفوسكم ، تلك التي تؤثر فيكم بقوة ، تلك التي تخاطبكم او تعبر عن بعض تجربتكم في الخطيئة او في الفرح والنضال الروحيين . احفظوا هذه النصوص غيبا ، لانه في اليوم الذي تشعرون فيه بالانحطاط واليأس ، حينما ترون انفسكم عاجزين عن اداء اية صلاة عفوية من قلبكم ، فسترون ان هذه الكلمات تصعد الى شفاهكم ، وستقدم نفسها اليكم كهبة من الله ، هبة من القداسة آتية لمعاونتكم في ما يعوزكم من قوة . اذ ذاك تصبح لديكم حقا ، حاجة للصلوات التي حفظتموها والتي اصبحت الآن جزءا منكم .

عندنا في الكنيسة الارثوذكسية ، صلاة النهوض من النوم وصلاة المساء وهما بشكل عام اطول من الصلوات المماثلة في الغرب ، اذ تستغرق كل منهما مدة نصف ساعة في الصبح والمساء وباستطاعة الانسان ان يحفظهما غيبا ليستعين بهما في الفرصة المناسبة . ولكن لا يكفي ان نحفظ الصلوات غيبا . فالصلاة لا تكتسب اي معنى ما لم تكن معاشة . اما اذا لم تكن الصلاة معاشة ، واما اذا كانت الحياة والصلاة غير متداخلتين كليا ، فلا تكون هذه الصلاة آنئذ سوى قصيدة غزلية رقيقة نقدمها لله حينما نكرس له بعضا من الوقت .

واذا تلوتم او حفظتم — اثناء صلاة النهوض من النوم — عبارة ما ، فعليكم ان تعيشوها طيلة النهار . ومن المحبذ ان تحفظوا من النصوص ذات الدلالة بقدر ما تستطيعون . ولكن عليكم من ناحية اخرى ان تعوا — حينما تعثرون وانتم تقرأون الانجيل او الكتاب المقدس او حينما تتلون في صلاتكم بعض النصوص الليتورجية على عبارة مثيرة — ان تسعوا لتعيشوا هذه العبارة خلال النهار

coptic-books.blogspot.com

ولأطول مدة ممكنة . لعلكم تظنون انفسكم قادرين على ان تعيشوا طيلة النهار عبارة تختارونها ؟ هذا في الواقع امر فائق الصعوبة . ستكونون من المحظوظين اذا ما توصلتم ان تعيشوا ولو لساعة واحدة عبارة ما ، من صلاة واحدة بدون ان تتراجعوا عما سعيتم اليه . ولكن لا تترددوا . وقولوا : « يا رب ، قرأت هذه العبارة وقلبي كله استعداد . اريد ان يكون قلبي مفتوحا لله مستعدا للنزول عند ارادته لمدة نصف ساعة » نصف ساعة ليس اكثر . بعدها اعطوا لأنفسكم فترة استراحة وانتقلوا لعبارة اخرى ، ذلك لأنه لو سعيتم لقصر اهتمامكم على عبارة صعبة واحدة فلا بد لكم وان تقولوا : « لم يعد لي اي طاقة » ولن تقدموا بالنتيجة على اي عمل . ولكن اذا قلتم : « لدي ثلاث عبارات او اربع او خمس ستكون موضوع نهاري ، وسأسعى لأضع الاولى موضع التنفيذ حتى الساعة العاشرة من هذا الصباح ثم انتقل للثانية وهكذا دواليك » . عندها سترون أن جميع عبارات الصلاة وجميع الافكار والعواطف التي عبر عنها القديسون في صلواتهم كلها ستعيش فيكم تدريجيا . وكذلك بصورة تدريجية ستطبع ارادتكم بطابعها من اجل ان تكيفها وتكيف جسدكم معها ، لأنه بهذا الجسد ينبغي لكم ان تنفذوا وصايا الله .

بيد انكم قد تقولون مع ذلك : « هذه الكلمات لا تعني لنا الكثير » . فلو كانت معبرة عن ايمانكم العميق ، حتى ولو لم تكونوا شاعرين باية حرارة في تلك اللحظة ، اتجهوا نحو الله بأسف وقولوا له : « هذه الكلمات انما تعبر عن ايماني العميق ولكن انظر فها هي تبقيني باردة كل البرودة » . فلعله انطلاقا من هذه الصرخة ستنهمر الصلاة العفوية بشكل مفاجيء . هكذا تستطيعون ان تصوروا لله حزنكم وكذلك تعاستكم ونفوركم من ذاتكم وتلقون انفسكم بعدئذ اقوياء بما عزمتم عليه من قول الحقيقة لله ومن قولكم له ايضا بان ارادتكم متحدة بارادته .

اخيرا بوسعنا ان نصلي ايضا حينما نؤدي بشكل دائم تقريبا صلاة نطقية هي بمثابة العمق الذي يمدكم بالعون ، تماما كما تساعد العصا على المشي وذلك طيلة النهار وعلى مدى الحياة .

coptic-books.blogspot.com

واعني هنا « صلاة يسوع » تلك الصلاة المرتكزة على اسم يسوع والمعروفة جيدا في الكنيسة الارثوذكسية : « ايها الرب يسوع المسيح ، يا ابن الله ، ارحمني انا الخاطي » . وهذه صلاة مشتركة بين الرهبان والراهبات والعلمانيين . انها صلاة الاستقرار لأنها غير جدلية — ولا يتم الانتقال معها من اعتبار لآخر ، بل هي تحملنا على المثول امام الله بواسطة التعبير عن الايمان فيه . كما تعبر من ناحية اخرى عن موقف واقعي هو موقفنا . انه التعبير عن الايمان الذي يختصر كل الاناجيل على حد راي النساك والمتصوفين الارثوذكسيين . ان من يتلو صلاة يسوع يعترف بربوبية المسيح وبسلطته المطلقة علينا . كما يعلن عن ايمانه بأنه ربنا والهنا . هذا ما يدفعنا للقول ان لا شيء في حياتنا يخرج على ارادته ، تلك الارادة التي نوكل امرنا اليها دون غيرها . ذلك هو يسوع الذي يقودنا التضرع اليه لاعلان حقيقة سر التجسد وكل ما يمثله هذا السر ، اي ذاك المسيح الذي نرى فيه كلمة الله المتجسد ، ونرى فيه كما في سيرة العهدين القديم والجديد مسيح الرب . اخيرا يأتي التعبير عن الايمان الذي يمثل حقيقته كابن الله . هذا التعبير لا يعني يسوع المسيح وحده فقط بل يتصل بالثالوث ايضا ، لأن المسيح هو ابن الاب . وما من احد يمكنه الاعتراف بنبي الجليل ابنا لله متجسدا ما لم يعلمه الروح القدس ان يرى ويفهم ويلتزم . وهنا نجد انفسنا امام التعبير الرابع عن الايمان وهو الذي يمكننا ان نمثل في حضرة الله بالحق ونعترف بالروح . وتنتهي الصلاة بـ : « ارحم ! » وهي ترجمة لكلمة « اليسون » . « كيري اليسون » تعبير يوناني يعني : « يا رب ارحم ! » .

واذا كنت اشدد على هذه الكلمات الاخيرة ، فلأنها اتخذت من جميع اللغات الحديثة معنى تقنيا مختصرا ، بالنسبة للمعنى الذي كانت تحمله في اللغات القديمة . نستخدم معظم الاحيان في صلاتنا كلمات على جانب عظيم من الغنى ويفوتنا مع ذلك مدلولها العميق ، اذ نعطي هذه الكلمات معناها الشائع في حين انها قد تحدث صدى عميقا في نفوسنا في ما لو اننا جعلنا لها ارتباطا بعناصر اخرى معروفة من قبلنا .

coptic-books.blogspot.com

بودي هنا ان اعطيكم مثالا عما ابديه ، وهو يغيظ المتفقهين لارتكازه على علم لغوي مشكوك فيه . ولكن بما ان هذا العلم مرتكز على تلاعب بالكلمات ، صنعه قبل قرون الاباء اليونانيون الذين كانوا يعرفون لغتهم تمام المعرفة ولا يتوانون عن التلاعب بكلماتها ، فسألجأ بدوري لهذه السابقة .

لقد حصل لمعظمنا مرة او اخرى ان قال : « كيري اليسون ! » او «يارب ارحم !» ونحن نعرف هذه الصيغة ومعناها التقريبي. يكفي ان نقول انها نداء نوجهه لله مبتهلين اليه ان يمنحنا العفو والرحمة والرضى . لكن بعض الاباء اليونانيين وهنا سيجد المتفقهون مجالا لفتح باب الخصام معي — يرجعون كلمة « اليسون » لنفس الاصل الذي اشتقت منه باليونانية كلمة شجرة الزيتون او زيتون او زيت زيتون . لندع النقاش جانبا لعلماء اللغة ولنحاول ان نجد ما يمكن لهذا الاشتقاق ان يعنيه لنا في الكتاب المقدس . بوسعنا حينما نقول « كيري اليسون » الا نعطي هذه الصلاة اكثر من معناها العام الدال على طلب العفو الالهي . عندها نظل نشعر بعدم الاكتفاء لأن حياتنا في مجملها لا تقتصر على عبارة : « يا رب ارحم ! » . ومن ناحية اخرى لا تعني هذه الكلمات الكثير في اللغة الدارجة . اما اذا فكرنا في شجرة الزيتون وفي الزيتون كما وردا في التوراة ، فاننا سنلاحظ بأن شجرة الزيتون قد ظهرت للمرة الاولى في اخر الطوفان عندما حملت اليمامة الى نوح غصن الزيتون (فهل هي نفس اليمامة التي حطت على جسد المسيح اثناء معموديته ؟) . هذا الغصن يدل على ان غضب الله قد انتهى ، وانه منح عفوه منحا ، وان عصرا جديدا ورؤى جديدة فتحت ابوابها امامنا . هذا ما نكتشفه للوهلة الاولى . ولكن للأسف لا يمكننا ان نتقدم دائما بالاتجاه نفسه ، اذ لا يكفي ان يكون لدى الانسان الوقت والامكانيات الجديدة ، اذا ما وجد نفسه من ناحية اخرى واهن القوى منحط العزيمة عاجزا جسديا او روحيا عن تمييز الطريق المعدة له وسلوك هذه الطريق . عليه اولا ان يشفى وعندها نتذكر الزيت الذي صبه السامري على جراح المسافر الذي هاجمه قطاع الطرق . ان القدرة الالهية الشافية تمكننا ان نفيد من خمود غضب الله ، ومن عفوه ، واخيرا من هبة الزمان والمكان والازلية .

coptic-books.blogspot.com

صورة اخرى هي مسحة الكهنة والملوك الذيـن في قلب بني اسرائيل ـــ دعوا للوقوف في عتبة العالم الالهي وفي عتبة العالـم الانساني ، في نقطة وسطي بين الوحدة وانسجام الارادة الالهيـة وتعقيد عالم البشر ـــ كيلا نتطرق لأنواع التوتر والتناقض فيـه . وحتى نقوى على الوقوف في تلك العتبة لا يكفينا ان نتمتع بكافـة الاستعدادات البشرية الممكنة ، وانما يلزمنا ايضا عطاء من الله . ذلك هو المعنى الكامل للمسحة التي تلقاها الكهنة والملوك . على اننا كلنا كما في العهد الجديد كهنة وملوك ، ورسالتنا في ان نكون بشرا ومسيحيين نتعدى ما يمكن ان يبلغه كائـن بشري بقوتـه الذاتية . نحن مدعوون لأن نصبح او ان نكون اعضاء حية في جسد المسيح ، وهياكل منتصبة فوق تربة طاهرة جديرة بوجود الـروح فيها ، وكذلك مشاركين في الطبيعة الالهية . ان قدراتنا الانسانية لا تسمح لنا بالارتفاع الى مستوى رسالة كهذه الرسالة ولكنـه من واجبنا مع ذلك ان نكون انسانيين كل الانسانية وبالمعنى المليء والمسيحي للكلمة ، اي على غرار ابن الله المتجسد . ومن اجـل الوصول الى ذلك نحتاج لنعمة الله وعونه وهذا ما يشار اليـه بصورة المسحة .

واذا جعلنا تفكيرنا يتوقف على نحو بسيط ومباشر ـــ (يكفي من اجل ذلك معجم وكتاب مقدس وقليل من التفكير) ـــ عند الكلمات التي تؤلف صلاتنا فلا بد لهذه الكلمات من ان تصبح مفعمة بالفكر بشكل مدهش . ويصبح بوسعنا عندئذ ان نوجه المزيد من الانتباه الى ما نقول ، فلا تبقى صلاتنا اذ ذاك كلمات جوفـاء ، ولا تبقـى مجرد رمز عن شيء قد ضاع معناه الحقيقي . وقبـل ان نقـول « كيري اليسون » « يا رب ارحم » سنفكر في الموقت الـذي نحن فيه . فهل سقطنا الى احط درجة في ذاتنا ؟ هل اصبحنـا امـام إمكانيات لا محدودة نعجز عن تحقيق اي منها ، جرحنا بالـغ الى هذا الحد ؟ هل شفينا ودعينا لتأدية رسالة يحملنا التفكير بها عـلى التواضع ، وهل تتجاوزنا الرسالة كثيرا ؟ كذلك لا نستطيع تلبيـة هذه الرسالة بشكل تام الا اذا اعطانا الله القدرة على ادائها . كل ذلك يحتاج لقراءة مركزة للكلمات التي نتلوها في الصلاة . وهـذا يفترض ايضا اننا نستخدم الكلمات على نحو تتحد معه بعواطفنا ،

coptic-books.blogspot.com

وتنطبع بقوة حياتنا الشخصية وعمقها . ولكن اذا لم تتأصل الكلمات بواسطة حياتنا ، فستبقى خالية من كل معنى ، ولن تذهب بنا الى اي مكان ، فتصبح اشبه بالقوس الذي يعوزه الوتر . فمن غير المجدي قطعا ان نطلب الى الله شيئا ليس في النية تحقيقه من جهتنا . واذا قلنا : « يا رب نجنا من هذه التجربة او تلك » واغتنمنا كل الفرص من اجل الاستسلام لها ، على امل ان الله قد امسك الآن زمام الاشياء ، وسيحل لنا المشكلة ، فلن نتمكن ابدا من ان ننجو من التجربة . الله يمنحنا القوة وعلينا معرفة استعمالها . ولا يجب ان نمزج بين طلبنا الى الله ان يمنحنا القدرة على عمل شيء باسمه ، وطلبنا اليه ان يتصرف نيابة عنا ، لاننا لا نجد في انفسنا القدرة على ذلك .

ان حياة القديسين عميقة الدلالة في هذا المجال . لنأخذ مثل فيليب نيري ، كان نزقا سريع الخصومة ، غضوبا ، الامر الذي حمل اخوته على الرد . ذات يوم ، شعر بأن الامر لن يطول على هذا النحو ، فهل نجم قراره هذا عن فضيلته ام لانه لم يعد يطيق اخوته ؟ التاريخ لا يذكر ذلك . انه كان دائما يسارع الى الكنيسة ليخشع امام المسيح متضرعا اليه كي يحرره من نزقه . ثم يغادر الكنيسة مفعما بالامل . واول من يطالعه في الطريق اخ لم يثر غضبه ابدا من قبل . ولاول مرة في حياته يظهر الاخ كريها منفرا . ويغضب فيليب ، وفي غمرة غضبه يخرج للبحث عن شقيق اخر كان دائما بالنسبة اليه منبعا للعزاء والفرح . وها ان شقيقه هذا بدوره يرد عليه بخشونة ! لهذا يسارع فيليب للعودة الى الكنيسة ويرتمي عند قدمي المسيح ويقول : « ايها الرب ! الم اطلب اليك ان تنقذني من نزقي ؟ » ويجيبه الرب : « اجل يا فيليب ! ولهذا اخلق لك الفرص العديدة من اجل تصحيح نفسك » .

ارى من المهم جدا ان ندرك بأن الله يتصرف دائما هكذا . ولن يعرض نفسه للصلب الى ما لا نهاية ، من اجلنا . اذ تأتي اوقات يجب علينا خلالها ان نحمل صليبنا بأنفسنا . على كل منا ان يأخذ صليبه ، وعندما تتطلب صلاتنا اي شيء ، فمن الواضح لنا اننا سنعمد من اجل ذلك لتعبئة كامل قوانا وذكائنا وحماسنا الممكن

coptic-books.blogspot.com

فضلاً عن الشجاعة والطاقة اللتين نتمتع بهما . وسنضع فيها الى جانب ذلك كل القدرة التي سيعطينا الله اياها . والا كانت صلاتنا مضيعة للوقت . بقي ذلك ان عبارة « كيري اليسون » او اي كلام مماثل لا بد ان يرتد علينا . وينبغي لعقلنا ان يتكيف بل ان يتقولب بكلماتنا كما يمتلىء بها ويتواءم معها . وينبغي لقلبنا كذلك ان يتقبلها بيقين تام ويعبر عنها بكل ما اوتينا من قوة ، وعلى ارادتنا ان تستحوذ على هذه الكلمات وتحولها الى افعال . فالصلاة والعمل ينبغي لهما اذا ان يصبحا تعبيرين اثنين لموقف واحد فريد ، هو موقفنا تجاه الله وتجاه انفسنا وكل ما يحيط بنا . والا نكون قد فرطنا بوقتنا . فما الذي يجدينا اذا افضينا الى الله بما يعترضنا من صعوبات — حين يعطينا الله القدرة على الكفاح — وانتظرنا منه ان يكافح بدلا عنا ؟ وما الذي ينفعنا من ترداد كلمات اصبحت من الخفة وفراغ المعنى والمادة بحيث انها لا تصلنا بالله الا على طريقة خيوط العنكبوت ؟

اختاروا اذا التعابير الصحيحة ، اختاروها وركزوا كل انتباهكم عليها لانها تعبر عن الحقيقة . وسيصغي الله اليها لانها صحيحة . واجعلوا كل قلبكم في هذه الكلمات . وبسبب صحتها ليكن عقلكم حاضرا فيها كل الحضور ليدخل اليها الحركة ، واعملوا بعد ذلك على ادخالها الى اعماق اعماق القلب .

كلمات الصلاة هي من ذاك النوع الذي يستوجب الالتزام الكلي . ولا يسعنا ان نتلفظ بها بدون ان نضيف اليها بصورة ضمنية : « اقول قولي هذا ، وهذا ما بودي ان افعله حالما تسنح لي الفرصة » . حينما نقول لله : « مهما كلف الامر ! اجل مهما كلف الامر ، خلصني يا الله » ، علينا الا ننسى ان نعبىء كل ارادتنا من اجل هذا الرجاء ، لأن الله سيقول ذات يوم : « هذه هي صورة الخساب » . وقد قال المفكرون القدامى : « اعط من دمك والله يهبك الروح القدس » . هذا هو الثمن . تخلوا عن كل شيء تحظوا بالسماء . تخلوا عن العبودية تحظوا بالحرية . وحيث ان ارادتكم قد التزمت ليس بفعل الصلاة وحسب بل بكل ما ينجم عنه من نتائج ، فمن الواجب ان يشترك جسدكم ايضا بهذه الصلاة لأن

coptic-books.blogspot.com

الكائن البشري ليس روحا ملتزمة بجسد وانما هو كائن . من جسد وروح ، كائن لا يتجزأ هو الانسان .

وتتطلب الصلاة جهدا جسديا : اي انتباها جسديا وموقفا جسديا من جانب المصلي . الصوم ايضا جزء من الصلاة . وعدم الزهد في المأكل والمشرب يثقل الصلاة ويعيقها ... فلو قمتم بكل ما اشرت عليكم به تكونون قد قرعتم الباب حقا .

واذا شئنا عن طريق هذه الاقوال ان نلج الى نفوسنا ونحفر فيها اعمق واعمق على غرار من يحفر بئرا ، فمن الواجب علينا ان نتعرض لمخاطرة ، مخاطرة تنبع من صعوبة العمل نفسه . الغوص في الذات امر يبدوا يسير جدا . فعمقنا الشخصي ليس فيه اي ريب ونحن على يقين من اننا — بمقدار ما نخوض في ذواتنا — سيكون الامر رائعا بالنسبة الينا . لكن الامور ليست بهذه السهولة . وحينما نتوصل الى بعض العمق ، فلن تسير الامور معنا على نحو سيء . هذا صحيح ، لكن ارتقاءنا على هذا النحو سيكون اشبه بروايات البحث عن **الكاس** (١) . سنعثر في طريقنا على جميع انواع الوحوش لكن هذه الوحوش ليست من الشياطين كما انها ليست اشخاصا غيرنا بل انما هي نفسنا . كل هذا يجعل المهمة اقل تشويقا واكثر صعوبة .

ان ما يجعلنا نعيش خارج ذواتنا معظم الاحيان انما هو الفراغ والخوف والفضول . ويلاحظ الكسي كاريل في كتابه « الانسان ذلك المجهول » انه لو تساءلنا اين حدود شخصيتنا ، فسنجد ان لسان الشره يتجه كالعلاقات نحو كافة انواع الاغذية في العالم ، وان عيني الفضولي علاقات تتجه الى كل ما يحيط بها وتلتصق به ، كذلك نرى اذني الثرثار تمتدان وتنشطان وتنتشران في جميع الاتجاهات . فاذا استطعنا ان نرسم صورتنا من وجهة النظر المثلثة هذه ، سنجد انه لن يبقى الكثير منا في داخلنا وسيكون كل شيء منفتحا على الخارج . اول ما ينبغي ان نفعله اذا هو ان نقطع علاقاتنا او نعيدها الى داخل . فليس بوسع المرء ان يدخل الى ذاته اذا كان طيلة الوقت خارجها . جربوا هذا الاختبار ،

---

(1) Le graal

coptic-books.blogspot.com

ستكتشفون دربا مليئا بالتعاليم المفيدة . احرصوا على ايجاد الوقت الذي تخلون فيه لانفسكم ، اقفلوا الابواب دونكم وامكثوا في غرفكم فترة لا تكونون فيها مرتبطين بأي شيء آخر . قولوا : « ها انذا مع نفسي » واجلسوا بصحبة انفسكم . لعلكم ستشعرون بعد وقت قصير جدا بالضجر يتسرب اليكم . هذا امر مفيد جدا ، لانه يدفعنا الى ان نفهم بانه اذا كنا نشعر بالضجر بعد عشر دقائق من الاختلاء بذاتنا ، فليس من المدهش اذا ان يشعر الاخرون بالمثل حينما يكونون بصحبتنا ! عم يتأتى ذلك ؟ عن اننا لا نجد لدينا الغذاء الكافي لتقدمه لعقلنا وعاطفتنا وحياتنا . واذا ما تطلعنا الى حياتنا عن كثب ، فلن يطول الوقت الذي نكتشف فيه اننا نادرا ما نتصرف من داخل ذاتنا وبان تصرفنا ما هو الا ردود فعل على متنبهات او مثيرات خارجية . فنكون بقول اخر كمن يعيش على انعكاساته العصبية ، يطرأ لنا طارىء ، فنبدي تجاهه انعكاسا عصبيا معينا . يكلمنا احدهم ، فنجيب . وترانا على العكس من ذلك حين نجد انفسنا بدون منبه للتفكير او الكلام او التصرف ، فنلاحظ ان لا شيء فينا يدفعنا لأي عمل كيفما كان اتجاهه . ان اكتشافا كهذا يعتبر خطيرا ولا شك . فنحن فارغون كليا ، ولا نتصرف من داخل ذواتنا ، ونتصور حياتنا تلك التي تتغذى واقعيا من الخارج . لقد الفنا الاحداث وهي تحملنا على التصرف . وكم هي نادرة تلك اللحظات التي نعيش فيها بفضل موارد غنانا الداخلي فقط في حين نكون متأكدين من اننا نتمتع بمثل هذه الموارد .

هنالك مقطع من « اوراق بكويك » للكاتب تشارلز ديكنز يوضح بشكل مدهش نمط حياتي وحياتكم ايضا بالطبع . يقصد السيد بيكويك الى النادي . يستقل عربة وطيلة الطريق لا ينقطع عن طرح الاسئلة على السائق . ويسأله في ما يسأله : « قل لي كيف لهذا الجواد الضعيف النحيل ان يجر عربة كبيرة وثقيلة الى هذا الحد ؟ » ويجيبه السائق : « ليست المسألة مسألة حصان ، ايها السيد انما مسألة سيارة ! » .

ـــ وكيف ذلك ؟

ـــ انظر لدينا عجلتان ممتازتان مشحمتان جيدا ، فما يكاد

coptic-books.blogspot.com

الحصان يشد الهيكل الخشبي حتى تهتز العجلات ولا يعود أمام الحصان الا ان يركض اذا اراد ان لا يهلك سحقا تحت العجلات ». لنتطلع الى انفسنا كيف نعيش ، لسنا معظم الوقت ذاك الحصان الذي يجر العربة بل الحصان الذي — في غمرة جنون اللهم نفسي — يأخذ اللجام بين اسنانه .

وحيث اننا لا نعرف القيام بأي عمل ما لم نكن مدفوعين اليه من خارج ، فسنكتشف باننا لا نعرف كيف نشغل انفسنا وسينتابنا الملل اكثر فأكثر . يجب علينا اذا ان نتعلم كيف نخلو لأنفسنا وكيف نجابه الملل وكيف نحصل في موقف كهذا على جميع النتائج التي تفرض نفسها .

وبمرور بعض الوقت يتفاقم الموقف لاننا عبرنا المرحلة التي يمكننا ان نتجاوز فيها قائلين : « لي مزاج حيوي يجب تقديم الخدمات . دائما اقوم بعمل الخير واذا ما وجدتني هكذا جامدا لا استطيع ان افعل اي شيء فسيكون الامر عسيرا بالنسبة لي » . ونبدأ باكتشاف شيء آخر مختلف . سنضايق انفسنا اذا ما عمدنا — في سبيل الهروب من القلق — للدخول الى ذواتنا على امل ان نجد فيها علاجا له ، سنلاحظ على الفور بأن لا علاج هناك ، لأننا بتنا لا نستطيع ان نعمل اكثر من تكرار ما جال في خاطرنا بضع عشرات من المرات . وكل انواع المشاعر المختزنة لدينا هي عندنا كبيانو امكننا اقفاله لاننا لم نألف رؤية بيانو يعزف وحده . وننتظر احدا كي يداعب لمساته بدلا عنا . لسنا معتادين على عدم القيام بأي عمل فترزح علينا البطالة الى درجة نشعر معها بالقلق . اباء الصحراء او الرهبان الذين لم يغادروا اديرتهم ، قاموا بتجربة كهذه : كانوا في بعض الاحيان يغرون من قلاياتهم طالبين النجدة ، على امل ان يصادفوا امرءا ما او شخصا ما بل اي شيء . لعل الشيطان نفسه كان افضل من شعورهم بحمى ايجاد انفسهم في فراغ داخلي . ويلاحظ تيوفانوس المعتزل ذلك حيث يقول : « معظم البشر هم اشبه بالبشارة الملتفة حول فراغها المركزي » . لنكن مخلصين ولنعترف بصحة هذه الصورة ، لأنها تصف حالتنا جميعا .

coptic-books.blogspot.com

وعندئذ ، ينبغي لنا أن نكون قادرين على الكفاح ضد هذا القلق ونقول : « كلا ، سأحمد بقوة الى ان ابلغ النقطة التي يدفعني فيها القلق الى العمل ، الى حيث الارادة الطيبة عاجزة عن عمل اي شيء » . ذلك انه قد تأتي لحظة من اليأس والقلق والذعر المخيف ، تجعلنا نغوص اكثر في نفوسنا ونهتف : « يا رب ارحم ! انني اهلك ، انقذني ! » ونكتشف ان لا شيء في انفسنا من شأنه ان يهبنا الحياة او بالاحرى ان يكون هو الحياة ، وكل ما اطلقنا عليه اسم الحياة ، وكل ما ظنناه انه الحياة كان خارج انفسنا ، اما في داخلها فلا يوجد في النهاية اي شيء !

وتغوص نظرتنا في هوة العدم ونلاحظ اننا كلما نزلنا فيها اكثر نشعر بأنها لا تبقى على حالها كجزء منا . وتكون تلك الخطة من الخطورة بحيث يحكم علينا فيها بالتردد .

وفي هذه المرحلة من مراحل الغوص في عمق انفسنا ، نكون قد بلغنا اول درجة نكون فيها قادرين على قرع الباب . في المراحل السابقة ، لم نكن قد عرفنا في البداية سوى فترة استراحة ممتعة بعيدا عن الجمهور ثم عشنا قلقا غامضا ونوعا من الانزعاج اذ ادركنا ذلك . وقد وصلنا الى درجة لن نستطيع فيها ان نقف في مكاننا ، وبتنا نشعر بانشغال البال ينتابنا بل بالقلق يساورنا . ولكن لا شيء مع ذلك من شأنه أن يبرر الصراخ واطلاق صيحة اليأس التي تجتاحنا نتيجة التفكير بأنه اذا لم يتدخل الله في امرنا فسوف نفقد انفسنا على نحو لا مرد له ، وبأننا اذا خرجنا من تلك الهوة فسوف نلقى انفسنا في عالم الوهم والحياة المرتكزة على الانعكاسات العصبية ، وليس في الحياة الواقعية بأي حال .

في هذه المرحلة ، يمكننا ان نبدأ بقرع باب ما زال حتى الان مغلقا ، لكن وراءه يكمن الرجاء ، برتيماوس ، اعمى اريحا الذي انبعث من اعماق يأسه عند مرور المسيح .

نعرف عن طريق الاناجيل ان برتيماوس كان على حافة الطريق ، مصابا بفقدان البصر التام ، وقد فقد كل ثقة وكل رجاء بالمعونات الانسانية ، وبات مضطرا للتسول من اجل العيش ، مرغما على

coptic-books.blogspot.com

الاعتماد ليس على المحبة الحقيقية ، بل على ذلك النوع من الاحسان الذي يقضي بأن يرمي انسان الى آخر بعض قطع النقود دون ان يكلف نفسه عناء التطلع اليه . وها اننا ذات يوم نرى هذا الانسان — الذي فقد كل رجاء وجلس الى حافة الطريق فاقد البصر وسط الغبار — يسمع باخبار واحد من الناس ، ذلك النبي الجديد الذي يجترح العجائب في جميع انحاء الارض المقدسة . لو لم يكن برتيماوس فاقدا نعمة البصر لكان اندفع ولا شك ليجوب البلاد بأسرها بحثا عن ذلك النبي ! لكنه اعمى ، لا يستطيع اللحاق بهذا الشافي ، المجترح العجائب . لذا ظل حيث كان ، على ان شعوره بان ثمة انسانا يستطيع شفاءه زاد من حدة يأسه والمسه ، لأن لا سبيل عنده للوصول اليه . ذات يوم سمع جمهرة من الناس تمر على مقربة منه ، جمهرة ليس صوتها كأصوات الاخرين ... ولعله كسائر العميان يملك سمعا وحسا اكثر دقة من سمعنا وحسنا فسأل : « من ذا الذي يمر على الطريق » . واجابوه : « يسوع الناصري » . هب عندئذ واقفا في غمرة اليأس والرجاء ، الرجاء الجنوني لأن المسيح مر في وقت كان اليأس خلاله في عمق سريرته ، على وشك التدفق . ولم يبق سوى خطوات حتى يصل المسيح لمحاذاته ، وبعدها بخطوات اخرى يكون قد اجتاز المكان الى غير رجعة على الاطلاق . وهنا بدا يصيح ويصرخ بفعل ذلك الرجاء اليائس : « يا يسوع ابن داود ارحمني ! » . كان صراخه تعبيرا كاملا عن الايمان . كان يأسه في تلك اللحظة من الحدة بحيث تمكن برتيماوس ان يجد في نفسه ذلك الامل الجنوني الذي يساعده على طلب الشفاء والانقاذ والتجدد . وسمعه المسيح .

ثمة درجة في اليأس هي اشبه بالرجاء المطلق الكامل . انها النقطة المحددة التي تمكننا من الصلاة حينما نصل الى اعماق نفوسنا . في هذه اللحظة يصبح هتافنا : « يا رب ارحم » كافيا . ولا يبقى ثمة حاجة لتلقي امام الله خطبا معقدة مستعارة من كتب الصلاة ، بل يكفي بكل بساطة ان نطلب النجدة من اعماق يأسنا وسيكون صوتنا مسموعا .

معظم الاحيان لا يكون لصلاتنا القدر الكافي من الحدة واليقين والعمق وذاك لأن يأسنا يشكو حاجة للعمق . نريد الله الى جانب

coptic-books.blogspot.com

اشياء اخرى نملكها ، ونرغب في عونه ولكننا نسعى في نفس الوقت الى الحصول على النجدة من اي مصدر اخر ونحرص على ان يكون الله احتياطيا للمعركة النهائية . ونتوجه لحكام هذا العالم ولبني البشر قائلين : « ربي ! اعطهم القوة ليفعلوا هذا من اجلي ! » ونادرا ما نتحول عن هؤلاء الحكام ابناء هذا الدهر لنقول : « لن ادعو احدا لنجدتي ، عونك وحده يا رب هو ما اريد » . لو كان يأسنا منبعثا من العمق ، ولو ان ما نطلبه وما نتضرع به كان من الاهمية بحيث يختصر كل ما هو ضروري لحياتنا ، فسنعرف عندئذ كيف نعثر على تعابير الصلاة ، وسيكون بمقدورنا ان نصل الى عمق قلب الصلاة ، والى لقاء الله .

بودي ، عند هذه النقطة ، ان اشدد على الضجيج والتململ . وهنا ايضا سينير لنا برتيماوس الطريق . يقول الانجيل انه كان يصيح ، فما الذي يذكره لنا عن الجمهرة التي كانت تحيط به ؟ كلهم من حول الاعمى كانوا يريدون اسكاته ، ومن اليسير لنا ان نتصور هؤلاء الناس الطيبين المتمتعين بالقدرة على المشي والبصر المفعمين بالصحة والنشاط كيف انهم سارعوا للاحاطة بالمسيح ليحدثوه عن مواضيع رفيعة — كالملكوت الاتي واسرار الكتاب المقدس — في حين انهم كانوا يعنفون برتيماوس قائلين : « اخرس ! عيناك ! عيناك ! ما شأن عينيك حينما يكون حديثنا عن الله ؟ » ويلوح برتيماوس كالمكدر لكل الناس وسط احتفال جميل يخرب ما فيه من نظام ويطلق صيحته اليائسة امام الله . كانوا يريدون الخلاص منه على الفور . يريدون اسكاته . لكن الانجيل يقول ايضا انه على الرغم من هؤلاء الناس الذين ارادوا حمله على الصمت ، لم ينفك ابدا عن الصياح لأن حياته كلها كانت في الميزان . وبقدر ما كانوا يرغبون في اسكاته ، بقدر ما كان صياحه يزداد .

« هذه اذا رسالتي . مكسيموس ، احد القديسين اليونان في القرن الرابع اراد ذات يوم ان يقرأ في الكنيسة مقطعا من رسالة القديس بولس وفيه يوصي الرسول بضرورة الصلاة المستمرة . وتأثر الشاب بذلك ، حيث انه لم يجد افضل من اتباع الوصية . بعد مغادرة الكنيسة ، قصد الى الجبال القريبة وصمم على الصلاة

coptic-books.blogspot.com

بلا انقطاع . وكل فلاح يوناني في تلك الحقبة ، كان لا يعرف اكثر من « ابانا » وبعض الصلوات الاخرى . وهكذا بدأ بتلاوتها بلا توقف . وشعر بنفسه في تلك اللحظات سعيدا جدا . يصلي ، وهو مع الله ، وهو في منتهى السرور ، كل شيء بدا له رائعا الى ان بدأت الشمس تغيب تدريجيا ، وراء الافق . ولم يمض وقت طويل حتى هبط الليل وبدا الصقيع . ومع الليل بدأت تسمع الاصوات المخيفة : اغصان الاشجار تتكسر تحت اقدام الوحوش ذات العيون المتوقدة ، وصراع بين الحيوانات المفترسة ، القوية منها تصرع الضعيفة . وشعر عندئذ بأنه وحيد فعلا ، انسان ضعيف مسكين لا يقوى على الدفاع عن نفسه في عالم تسوده انواع المخاطر والموت والقتل . وادرك انه هالك لا محالة ما لم يكن الله في عونه . وترك « الصلاة الربانية » ودستور الايمان ، وعمل تماما على غرار برتيماوس اذ صاح : « ايها الرب يسوع المسيح ، يا ابن الله ، ارحمني ! » وظل يصيح على هذا النحو طيلة الليل لأن الوحوش وعيونها المتوقدة لم تسمح بأن يغمض له جفن . وعندما بزغ الفجر وعادت الحيوانات المتوحشة الى اوكارها قال في نفسه : « الان استطيع ان اصلي ! » لكنه شعر فجأة بالجوع . ورغب في قطف ثمرة عنبية واقترب من عليق الغابة وفكر فجأة بان وراءها قد تختبيء العيون البراقة والمخالب الماضية . وصار يقترب بحذر قائلا في نفسه عند كل خطوة : « يا ربي يسوع المسيح ، خلصني ، احضر لمعونتي ، انجدني ، خلصني يا ربي ، ساعدني ، واحمني » . كان يصلي عدة مرات قبل ان يقطف عنبة واحدة .

بعد ذلك بسنوات صادف احد النساك ممن بلغوا الشيخوخة وخبروا الحياة ، فسأله كيف تعلم الصلاة بلا انقطاع ، فأجابه مكسيموس : « اظن ان الشيطان هو الذي علمني اياها » . فقال الشيخ العجوز : « اظنني فهمت ما عنيته ، لكنني اردت ان اتأكد من انني غير مخطيء » . وشرح له مكسيموس كيف انه تعود تدريجيا على كافة انواع الضجيج ومع مخاطر الليل والنهار ، وتعرض لتجارب كثيرة ، على مستوى الجسد والفكر والحس ثم لهجمات اكثر عنفا من قبل الشيطان . وفي النهاية لم تعد تمر لحظة واحدة في الليل او النهار لا يدعو فيها ربه صائحا فيه : « ارحمني ،

coptic-books.blogspot.com

عاما كاملة امضاها على هذا النحو ظهر عليه الرب . وفي لحظة الظهور نفسها دخل الى قلبه الهدوء والسلام والصفاء ، ولم يعد عنده اي تخوف من الظلمات او الوسوسج او الشيطان ، فقد اصبح الرب سيد الموقف . ويضيف مكسيموس : « فهمت اخيرا انه طالما ان الرب نفسه لا يتدخل فانني عاجز كليا ولا شك . وواصلت ندائي ايضا وسط الصفاء والسلام والفرح : ايها الرب يسوع المسيح يا ابن الله ارحمني ! » بات يدرك ان لا سلام في القلب والفكر ولا هدوء في الجسد ولا استقامة في الارادة الا برحمة الله .

هكذا تعلم الصلاة ، ليس على الرغم من التململ والاضطراب بل بسببهما حيث انهما يمثلان خطرا حقيقيا . لو كنا ندرك باننا اذا ما لاقينا الاضطراب والبلبلة سنكون اكبر وان الشيطان يحوم حولنا ساعيا للامساك بنا قصد القضاء علينا ، وان كل لقاء انساني هو حكم و « ازمة » وموقف نحن مدعوون فيه لملاقاة المسيح او لأن نكون رسله . ولو كنا ندرك بان لكل وجودنا معنى عميقا ايضا ، فيصبح بامكاننا ان نوجه نداءنا ونصلي بلا انقطاع . ولا تعود الضجة والتململ بمثابة عائقين في وجهنا بل تصبحان بمثابة الظرف الذي يعلمنا ان نصلي طالما اننا لا نزال قليلي التجربة بحيث لا نقوى على الصلاة بدافع داخلي وبدون تدخل عامل خارجي .

وحين نكون جاهلين كل شيء عن الصلاة ، وحين لا نكون قد بدانا بعد بالصلاة او حين لا نكون قد صلينا كفاية خلال حياتنا ، فكيف لنا ان نتعلم الصلاة ضمن ظروف حياتنا الحالية ؟ لقد اختبرت ما سأشير عليكم به من مواقف مختلفة وذلك خلال حياتي كطبيب (طيلة خمس سنوات من الحرب) وقد اصبحت كاهنا . دائما سجلت نتائج ايجابية ولو كان لديكم بساطة الاستعداد للتجربة فلا بد وانكم ستنجحون بدوركم . واليكم ما ينبغي ان تفعلوه .

عندما تستيقظون صباحا عليكم قبل كل شيء ان تشكروا الله على النهار الطالع حتى ولو لم تكونوا راغبين فيه بنوع خاص : « هذا هو النهار الذي منحنا الرب اياه ، فلنبتهج ولنفرح بما وهبنا الله » . وبعد ان ينتهي فعل الشكر ، خذوا وقتا لتتأكدوا الى اي حد

coptic-books.blogspot.com

يعتبر ما قلتموه صحيحا ، لعله يقع في مستوى اليقين العميق ان لم يكن في مستوى الابتهاج .

بعد ذلك ، انهضوا من فراشكم واعدوا شؤونكم ولوازمكم وكل ما عليكم ان تفعلوه ثم ارجعوا لله ، عودوا اليه مقتنعين بامرين ، اولهما انكم تنتمون لله ، والثاني ان هذا النهار ملك له ايضا وهو جديد في نظركم وفريد من نوعه تماما . ولم يمر عليكم شبيه له من قبل ، كأنه — كما يقولون في روسيا — بساط طاهر من الثلج . لم يطأه احد بقدميه . يمتد بكل طهره وعذرته امامكم . وبعدها ما العمل ؟ ينبغي ان تطلبوا الى الله ان يبارك هذا النهار ، ان يكون كل ما فيه مباركا من قبله وموجها منه . بعد ذلك يجب اخذ النهار على محمل الجد . كثيرا ما نردد هذا القول : « باركني يا رب » وبعد الحصول على البركة ، نتصرف على غرار الابن الشاطر ، فنجمع كل ما نملك ثم نسافر الى الخارج بحثا وراء الملذات .

هذا النهار مبارك من الله ، وهو ملك لله ، ويجب الدخول فيه الان . تدخلون النهار بصفتكم رسلا لله ، وكائنا من كان الاشخاص الذين تصادفونهم ، لاقوهم في حضرة الله . انتم حضور الله ، حضور المسيح ، حضور الروح القدس ، حضور الانجيل . تلك هي مهمتكم في هذا اليوم . الله لم يقل قط بأنه حين تدخلون باسمه في موقف معين سيكون هو المصلوب وانتم ابناء القيامة . عليكم ان تنتظروا الانتقال من حدث لآخر وذلك باسم الله ، تماما كما فعل المسيح في الاهانة وفي التواضع والحقيقة مستعدين للاضطهاد الخ . . . لعلنا في العادة حين نعمل بوصايا الله ، ننتظر نتائج مدهشة وفورية وفق ما نقرأ احيانا عن حياة القديسين . مثلا ، حينما يصفعنا احد على خدنا الايمن ونديز له الايسر على امل الا يعود مرة اخرى لصفعنا وانما ليقول : « يا له من تواضع عجيب !! » — بهذا نحصل نحن على المكافأة ويحصل هو على خلاص نفسه ! كلا ما هكذا تجري الامور : يجب ان ندفع الثمن الذي غالبا ما يكون باهظا . المهم ان نكون على استعداد لدفعه . وطيلة ذلك النهار — اذا اقريتم بأنه مبارك من الله ومختار من قبله وعلى يده — سيكون كل لقاء لكم هبة من

coptic-books.blogspot.com

الله ، سواء كان مرا او طيبا ، اعجبكم او لم يعجبكم . هو هبة يمنحكم اياها الله بصورة شخصية فاذا تلقيتموها كهبة ، فسيكون بوسعكم ان تواجهوا اي موقف . ولكن عليكم ان تستقبلوا ذاك النهار بكل استعداد احببتم احداثه ام لم تحبوها . وهكذا اذا عشتم الساعات ، الواحدة بعد الاخرى ، على اسم الله ، اجل كل ساعات النهار الذي خرج من يديه مفعما بالنضارة والبركة من أجل ان تستطيعوا عيشه ، اذ ذاك تصبح صلاتكم وحياتكم بمثابة وجهين لقطعة نقود واحدة . سوف تعملون وتصلون بنفس واحد ، اذا صح القول ، لأن جميع المواقف التي تتوالى عليكم بحاجة لبركة الله .

تكلمت في هذا الموضوع منذ وقت طويل في « تيزه » وبقيت على اتصال بالمراسلة مع ثلاثين شابا وشابة تقريبا لقيتهم هناك . وكتبت لي واحدة من فتيات هذه المجموعة تقول : « حاولت ان اتبع نصيحتك . ووضعت من اجلها كل طاقتي . ولم تمر دقيقة واحدة بدون ان اصلي واعمل . وها انني الان لا اطيق مجرد سماع ذكر اسم الله . لم يعد بمقدوري ان اتحمل هذا النوع من الصلاة » . واجبتها : « اراك مصابة بعسر الهضم وكان عليك ان تبرهني في الصلاة كما في الحياة ــ على حسك السليم ــ فليس بامكانك ان تباشري نشاطك بثماني عشرة ساعة تقضينها في الحوار المتواصل مع الله وانت لم تعرفي الصلاة قط من قبل ، خاصة وانك تقومين بعمل آخر في نفس الوقت . كان بامكانك بكل سهولة ان تختاري فترة او فترتين من النهار ، تبذلين فيها كل طاقتك . اتجهي بكل بساطة نحو الله ، وابتسمي له وادخلي في الصلاة . هناك فترات يمكنك خلالها ان تقولي لله : « علي ان اتوقف ، فلست اقوى على البقاء معك كل الوقت » وهذا امر صحيح جدا . ليس لديك بعد القدرة على تحمل صحبة الله كل الوقت . اعترفي بذلك . الله يدرك الامر تماما ، كيفما قررت ان تعملي . اخلي لنفسك لحظات وقولي : « اريد ان استريح . وانا راضية بأن اكون ملكا لله وقتا اقل » .

« تستطيعين عندئذ ان تخلدي للراحة ثم انظري الى الاشياء المحيطة بك من اشجار وبيوت وغيرها وكلها اوجدها الله ، وارجعي بعدها الى الرب . اما اذا حاولت ان تصلي طيلة الوقت،

coptic-books.blogspot.com

فان الفشل سيكون حليفك ولا شك . على انك اذا اخترت فترات الصلاة بذكاء ، سيكون بامكانك ان تصلي بدون انقطاع » .

« اذا عملت بهذه النصائح ستتمكنين من ان تصلي . كما انه بمقدورك ان تتدربي على ذلك . ولا تنسي ان تكوني متزنة فهناك خطيئة اسمها « الشراهة الروحية » تحدث عنها آباء الكنيسة الاوائل ، وهي عبارة عن رغبة في تذوق الله بنهم حتى في الوقت الذي ينبغي فيه اتباع نظام غذائي يقضي بتذوقه ضمن حدود القليل ، اي ان نتذوق فقط ما يلائمنا لهذه الساعة المعنية ... » .

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

الفصل الرابع

السيطرة على الوقت

في خضم الحياة المضطربة اليوم تعتبر مسألة السيطرة على الوقت مسألة جوهرية . وليس في نيتي السعي لاقناعكم بان لديكم الكثير من الوقت وان بمستطاعكم ان تصلوا الى نهاية الطريق لو شئتم . لكن بودي ان اتحدث معكم عن الوسائل التي يمكن فيها توفير الوقت وسط اضطرابات الحياة وسرعة دورانها . سأتجنب وصف الطريقة التي يمكن بواسطتها ان نجد الوقت ، واكتفي بالاشارة الى انه لو خففنا من اضاعة الوقت فسيتأمن لنا وقت اطول . لو استخدمنا فتات الوقت الضائع في محاولة لبناء فترات قصيرة من اجل الصلاة والتأمل ، فلعلنا نكتشف ان هذا الوقت الذي ذكرناه لا يستهان به ابدا . لو فكرنا بعدد الدقائق الفارغة في نهارنا، تلك الدقائق التي نعمل فيها اي شيء نتيجة الخوف من الفراغ ، الخوف من ان نلقى انفسنا وحيدين مع ذواتنا فسنرى ان ثمة فترات قصيرة عديدة يمكننا ان نخصصها لله ولأنفسنا ايضا . لكنني اريد ان اتحدث بنوع خاص عن مسألة تبدو لي اكثر اهمية ، اعني الطريقة التي بها يمكننا مراقبة الوقت وايقافه . ليس بمستطاعنا ان نصلي ما لم نكن ماثلين في حضرة الله وفي حالة من

coptic-books.blogspot.com

الصفاء والسلام الداخلي الذي يحررنا من مبدأ الزمن ـ ولا اقصد هنا الزمن الموضوعي القابل للقياس وانما الانطباع الذاتي وهو الشعور بان الوقت يمر و « ان ليس لدينا الوقت » .

بودي في البداية ان الفت انتباهكم الى امر ندركه جميعا ويشكل لدينا موضوعا دائما للمناقشة . لا شك انه من غير المجدي على الاطلاق الركض وراء الوقت بقصد اللحاق به ، فهو لا يهرب منا بل نراه يندفع نحونا . وسواء رغبتم بالحاح ان تكون هذه الدقيقة الاتية موجودة هنا ، او انكم لم تعيروها اي اهتمام ، فبوسعكم ان تتأكدوا من انها ستصل ، ومهما كان بمقدوركم ان تفعلوا فان المستقبل سيصبح حاضرا ، لذلك فانه ليس من الضروري ان نقفز من الحاضر باتجاه المستقبل اذ يكفي بكل بساطة ان ننتظر المستقبل ليصبح حاضرا . ومن الممكن في هذا الصدد ان يكون المرء جامدا تماما في نفس الوقت الذي يتحرك فيه عبر الزمن، لأن الزمن هو الحركة . لنفكر في ما يجري داخل قطار او سيارة ـ في الوقت الذي لا نكون فيه وراء المقود ـ فيما اذا نظرنا من النافذة او الباب . وسواء قرانا ام فكرنا ام استرخينا ، فلا بد للقطار التقدم وفي فترة محددة سيصبح ذاك الذي كان مستقبلا ـ المحطة او آخر الخط ـ بمثابة الحاضر . انه امر شديد الاهمية بالنسبة لي. في حياتنا الروحية غالبا ما نقع في خطأ التصور بأن انتقالنا الى المستقبل سيكون اسرع لو حثينا الخطى ، هكذا يصبح مثلنا كالمسافر الذي ركض من مكان وقوف السيارة الاخيرة في الرتل الى مكان وقوف السيارة الاولى على امل ان يقصر المسافة بين لندن وادنبرة . امام هذا النوع من الامثال ، ندرك لمعقولية سلوك كهذا ، لكن هذه اللامعقولية لا نفهمها حينما نسعى باستمرار لنعيش مع عدة سنتيمترات من التقدم اذا صح التعبير . ان موقفا كهذا من شأنه ان يمنعنا من العيش بامتلاء في اللحظة الحاضرة وهي اللحظة الوحيدة التي يمكننا ان نكون موجودين فيها . فاذا تصورنا في الواقع انه بامكاننا ان نكون متقدمين على الوقت او على انفسنا ، فنحن لسنا فعليا كذلك . وفي الحقيقة نكون فقط مستعجلين ، ولكن دون ان يمكننا ذلك من تحقيق سرعة في التقدم . رأيتم مرات عديدة شخصا يحمل حقيبتين ثقيلتين بكلتا يديه وهو يركض للحاق بالباص،

coptic-books.blogspot.com

نراه يحث الخطى بقدر ما تسمح له الحقيبتان ، وكل همه ان يكون في غير المكان الذي هو فيه ...

مقابل ذلك ، جميعنا يعلم ما يجري حين نكون في عطلة . حتى لو مشينا بسرعة ، تغمرنا الغبطة ، ونسير على عجل او حتى عندما نكون راكضين — (الا اذا حال تقدم السن او اعتلال الصحة دون ذلك) — فلسنا نشعر بأننا مستعجلون لأن ما يهمنا في مثل هذا الوقت هو التنزه وليس الهدف الذي نتطلع لبلوغه . واليكم ما ينبغي ان تتعلموه بالنسبة للصلاة ، ان نتعلم كيف نثبت انفسنا في الحاضر . نتصرف احيانا وكأن الحاضر خط وهمي شديد الشفافية بين الماضي والمستقبل ، ونتأرجح دائما بين الماضي والمستقبل متجاوزين هذا الخط باستمرار ، كبيضة نتسلى بدحرجتها فوق غطاء الطاولة ، فهي في حركة دائمة ، وليست في مكان محدد ، وليس لها اي حاضر ، فهي في المستقبل دائما .

لا تتاح الفرصة لجميع الناس كي يقوموا بتجارب حاسمة ، ويعيشوا مواقف « كاشفة » غنية بالتعاليم ، لكن بودي ان اخبركم بكلمات عن تجربة كانت بالنسبة الي عظيمة الفائدة .

ابان الاحتلال الالماني ، كنت في المقاومة . وذات يوم وانا انزل الى المترو ، اوقفني البوليس . هذه التجربة كانت من اهم تجارب حياتي . وسأدع الجانب الروائي للحادثة وجميع ملابساته ، وسأسرد ما جرى على نحو فلسفي حسب علاقته بالزمن . ما حصل لي يمكن ان اعبر عنه كما يلي : كان لي ماض وكان لي مستقبل وكنت اترك الاول لأنضم للثاني وانا انزل على عجل سلم محطة النجمة في باريس . وفي لحظة معينة شعرت بيد تمتد الى كتفي وبصوت يأمرني : « قف ! اوراقك ! » ووقفت آنئذ امور عديدة في وقت واحد . اولا بدأت افكر باقصى سرعة ، كما بدأت احس بقوة ، وبدا لي موقفي في مجمله على نحو ولون بارزين كما لم يحصل لي من قبل . لاحظت من ثم انه لم يكن لدي ماض فقد بات ماضي الحقيقي ذاك الذي من اجله سأتعرض للموت رميا بالرصاص ، بحيث ان ماضي قد تبخر . ان الماضي المزعوم الذي هممت بكشفه لم يكن موجودا قط ، وبت كالحرذون الذي حين

coptic-books.blogspot.com

يمسك من ذيله يهرب تاركا هذا الذيل وراءه حتى ينتهي اخيرا الى نفس المكان الذي فيه الذيل . اخيرا ، ملاحظة ثالثة : (في نفس اللحظة ، لم اكن لأعنى قط بفلسفة الوقت ولم ادرك الامر الا تدريجيا) بدا لي كوميض البرق انه ليس لنا مستقبل الا بمقدار ما يمكننا ان نتوقعه وذلك قبل دقيقة من وقوعه او قبل متر واحد من بلوغه — فالمستقبل بقول آخر غير موجود عمليا — لأنه ليس لدينا ادنى فكرة كما يمكن ان يحصل ، فنحن كمن في حجرة مجهولة يخيم عليها الظلام . نقيم في هذه الحجرة دون ان نعي سوى الظلمات . وسواء كانت اللانهاية امامنا او لم يكن امامنا شيء فان الامر سيان ، اذ لا نعود موجودين حيث تبدأ الظلمات . لاحظت اذا انه لم يعد لي مستقبل . وادركت عندئذ ان العيش في الماضي من جهة ، والعيش في المستقبل من جهة اخرى من الامور المستحيلة . الحرذون لم يكن له ذيل والظلمات كانت تغطي وجهي . وادركت ان كامل وجودي قد ضغط في اللحظة الحاضرة . كل ماضي ، اعني جميع النتائج الممكنة الناجمة عن هذا الماضي ، كل ماضي بات محصورا في الحاضر على نحو حاد بارز مثير ، الامر الذي مكنني اخيرا من الخروج منه . اذا ثمة فترات بالنسبة للزمن بوسعنا فيها ان نفهم ودون الدخول في التفاصيل بان اللحظة الحاضرة ماثلة امامنا ، فالماضي اختفى تماما ، ولم يعد له اية اهمية الا بمقدار ما هو جزء من الحاضر ، وبوسعنا ان نقول الشيء نفسه عن المستقبل لأنه قد يقع وقد لا يقع . هذا ما يحصل فعلا عند وقوع حادث ما ضمن موقف خطير يتطلب من جانبكم ان تتصرفوا بسرعة البرق . اي في لحظة ليس لديكم فيها الوقت الذي يسمح لكم بالانتقال بيسر من الماضي الى المستقبل . ينبغي ان تكونوا في الحاضر تماما بحيث يكون كامل طاقاتكم ومجمل وجودكم ، كل ذلك محصور في « الآن » . وتكتشفون باهتمام بالغ انكم موجودون في « الآن » . وتتعرفون على المسطح الرقيق ، الرقيق جدا الذي تنبئنا هندسته بأن ليس له كثافة — هذا المسطح الهندسي الذي ليس له كثافة ، الذي هو « الآن » ، ينتقل عبر خطوط الزمان . او ان الزمان بالاحرى ينتشر حسب هذا المسطح ويأتي اليكم « الآن » بكل ما تحتاجونه في المستقبل . ذلك هو الموقف الذي يجب علينا ان نتعلم كيف نكون فيه ، كذلك يجب ان نتعلم هذا الامر بطريقة اكثر هدوءا ، يجب

coptic-books.blogspot.com

علينا ـ كما اظن ـ ان نتمرن على ايقاف الزمن والمثول في الحاضر، في هذا « الآن » الذي هو بدوره نقطة تقاطع الزمان مع الابدية .

فما الذي يمكن ان نفعله من اجل بلوغ هذا الهدف ؟ هاكم التمرين الاول . وباستطاعتكم ان تجربوه في لحظات فراغكم ، حينما لا يواجهكم اي امر من شأنه ان يدفعكم لهذه الجهة او تلك وحيث تستطيعون ان تمنحوا انفسكم خمس دقائق ، او ثلاث او نصف ساعة من الفراغ . اجلسوا وقولوا : « ها انني جالس ، لا اعمل شيئا ، وارغب الا اعمل شيئا طيلة خمس دقائق » . واسترخوا عند ذاك وخلال هذا الوقت (في البداية لن تستطيعوا ان تبقوا على هذه الحال اكثر من دقيقتين او ثلاث) قولوا في انفسكم : « ها انا الان مع الله ومع نفسي وكل الاشاء المحيط بي ، انا هادىء، لا احرك ساكنا » . بالطبع يجب هنا التنبه لامر واحد : عليكم ان تقرروا خلال الدقيقتين او الخمس دقائق التي خصصتموها لتتعلموا ان الحاضر موجود ، عليكم ان تقرروا ان لا شيء سينتزعكم من وضعكم الراهن اكان ذلك رنين الهاتف او طرق الباب او اي شكل من الاندفاع الفجائي لتنفذوا على الفور امرا ما برح ينتظر التنفيذ منذ عشر سنوات ! لو تعلمتم ان تتصرفوا على هذا النحو خلال الفترات الضائعة من اوقاتكم ولو عرفتم كيف تبعدون كل خضة داخلية تنتابكم وتحافظون تمام المحافظة على هدوئكم وهنائكم وارتياحكم وصفائكم ، فان عليكم اذ ذاك ان تتمرنوا على ذلك بعض الوقت ثم تمددوا هذه الفترة وقتا اطول . ولا بد ان تأتيكم فترة يجب عليكم فيها ان تؤمنوا الحماية لأنفسكم ، لانكم اذا استطعتم الا تأتوا بحركة طيلة دقيقتين ، فان الامر يختلف اذا طال الامر فبلغ ربع ساعة . قولوا لأنفسكم عندئذ انكم لو كنتم غائبين عن البيت فسوف لن تفتحوا الباب لأحد ولن تجيبوا على الهاتف . اما اذا اوتيتم المزيد من الشجاعة والاقتناع بأهمية هذا التريث ، فبامكانكم ان تتصرفوا على غرار والدي . كان يضع على الباب ملاحظة تقول : « لا جدوى من دق الباب . انا في البيت وليس في نيتي ان افتح لأحد » . تلك طريقة اكثر جذرية لأن الزائرين لا بد ان يفهموا على الفور . اما اذا كتبتم : « رجاء انتظروا خمس دقائق » فان صبرهم سينفد على العموم بعد دقيقتين !

coptic-books.blogspot.com

وبعدما تكونون قد حققتم هذه الطمأنينة وذاك الصفاء ، فان عليكم آنئذ ان تتعلموا كيف توقفون الزمن ، ليس فقط في الوقت الذي لا بد له ان يتوقف فيه بأي شكل ، بل كذلك في الفترات التي يتسارع فيها ويبدو خلالها لجوجا . واليكم طريقة العمل : ها انكم تقومون بعمل شيء ترونه مفيدا . وانتم على يقين بأنكم لو توقفتم ستتوقف الارض كلها ايضا . ولو انكم قررتم التوقف في فترة ما ، فلا بد وان تكتشفوا اشياء مهمة . سترون اولا ان الارض لم تتوقف وان بامكان الكون — لو كنتم تستطيعون تمثله — ان ينتظر خمس دقائق يكون فيها اهتمامكم في مكان آخر ، وهذه نقطة مهمة جدا حيث اننا نمنح انفسنا البديل في بعض الاحيان بقولنا : « علي ان اقوم بهذا الامر لان المحبة والواجب يدفعاني الى ذلك ، ولا سبيل لي لتركه ! » بل بامكانكم التخلي عنه لأنكم في فترات اخرى وبسبب الاستخفاف فقط ستتركون هذا العمل ولاكثر من خمس دقائق ايضا . كما ان اول عمل يجب ان تعملوه هو ان تقولوا لانفسكم : « سأتوقف في هذا المكان ، مهما حصل » وايسر طريقة للتصرف هو استعمال المنبه . عبئوا المنبه وقولوا : « حسنا ! سأعمل دون النظر الى الساعة الى ان يدق المنبه » . هذا تفصيل مهم جدا لانه يجب علينا ان نكتسب عادة عدم النظر الى الساعة باستمرار . عندما تقومون بزيارة وتشعرون بانكم تأخرتم ، فانكم تنظرون كذلك الى ساعتكم . ولكنكم وانتم تقومون بهذا العمل لن تتمكنوا من المشي باسرع مما لو سرتم على الطريق مباشرة . ولو بلغ تأخركم سبعا او خمسا او ثلاثا من الدقائق ، فأنتم متأخرون على كل حال . الافضل اذا ان تذهبوا باكرا او ان تخطوا الخطى اذا كنتم متأخرين . وحينما تصلون ، سيكون لديكم الوقت للنظر الى ساعتكم لتدركوا كم سيكون من سيلاقيكم مغتما حين يفتح لكم الباب . وعندما يدق المنبه ستعرفون طيلة الدقائق الخمس التالية ان العالم لم يعد موجودا ، وانكم عزمتم بالفعل على الا تتركوا المكان الذي أنتم فيه . هذا الوقت ملك لله وتجلسون في هذا الوقت المخصص لله باطمئنان وصمت وصفاء . ستشعرون في البداية ان الامر صعب وسرعان ما تكتشفون فجأة ان من المستعجل جدا ان تنهوا هذه الرسالة او تلك القراءة او المقطع . ستدركون في الواقع فورا ان بامكانكم تأجيل هذا العمل خلال ثلاث دقائق او خمس او

coptic-books.blogspot.com

حتى عشرة بدون الخوف من وقوع كارثة ما . ولو كان عليكم ان تقوموا بعمل يستحوذ على كل انتباهكم فستلاحظون ان بوسعكم القيام به باسرع وافضل مما تظنون !

بامكاني ان اعطيكم مثالا آخر . في مطلع حياتي المهنية كطبيب ، كنت ارى ان من الاجحاف بحقوق المرضى الانتظار في الخارج عندما تطول فترة فحص المريض الذي في الداخل . وكنت في اليوم الاول قد بدأت اجراء الفحوص باستعجال . فلاحظت في آخر النهار انني لم اعد اتذكر اي شيء عن الاشخاص الذين فحصتهم ، لانني طيلة وقت الزيارات كان نظري موجها الى ما يتعدى المريض الذي امامي ، الى قاعة الانتظار لأحصي فيها عدد اولئك الذين ليسوا معي ! وكان علي بالنتيجة ان اعيد من جديد طرح الاسئلة التي طرحتها ، واكرر مرتين بل ثلاث مرات الفحوص التي اجريتها . وفي نهاية الفحص الطبي ، لم اكن اعرف الى اين وصلت . لعل الجميع ليسوا مثلي ، فقد تكون لكم ذاكرة افضل من ذاكرتي ، لكنني اتيت بهذه الطرفة لتعزيز كلامي بمثال ، من اجل ان اشير لأمر يمكن ان يحصل معنا جميعا .

وبدا لي آنئذ ان ضميري المهني ضعيف وقررت ان اتصرف مذ ذاك على اساس ان المريض الذي في عيادتي هو وحده الموجود في العالم . وحين كنت ادهم نفسي وانا افكر : « يجب ان استعجل » ، كنت اجلس على الفور واجري مع المريض حديثا قصيرا لبضع دقائق ، وذلك فقط لكي امنع نفسي من العجلة . بعد مرور يومين، لاحظت انني لم اعد بحاجة الى اللجوء لهذه الخطة. فقد اصبح بامكاني ان اكون حاضرا بكليتي امام محدثي وتجاه عملي ، وبت اشعر اثر انتهاء المحادثة او العمل انني صرفت وقتا اقل من السابق بمرتين او ثلاث مرات في الوقت الذي رأيت وسمعت فيه كل شيء .

ومنذ ذلك الحين ، بدأت معظم الاحيان اسدي نصائح من هذا النوع لأشخاص متعددين ينتمون لمهن مختلفة ، وكانت النتيجة فعالة على الدوام . فلو انكم قمتم اذا بهذه التمارين ـــ بعد ان توقفوا في البداية الزمن الجامد ثم الزمن الذي يتوق للمرور باقصى سرعة ـــ لو اوقفتم هذا الوقت لتقولوا لا ـــ فستروا انه منذ اللحظة التي

coptic-books.blogspot.com

تنتصرون فيها على توتركم الداخلي ، واضطرابكم الداخلي ومشاعركم المحمومة وقلقكم ، فلا بد للزمن اذ ذاك من ان يمضي بصورة طبيعية تماما . هل توصلتم لاقناع انفسكم ان دقيقة واحدة تمضي في كل دقيقة ؟ هذا ما يجري فعليا ! لعل الامر غريب لكنه صحيح ، هذا على الرغم من اننا لو شئنا الحكم من خلال سلوكنا فقد تضغط الدقائق الخمس نفسها لتمضي في ثلاثين ثانية . هذا ليس صحيحا ، فكل دقيقة تستغرق نفس الوقت الذي تستغرقه الدقيقة التي تليها ، وكل ساعة تستغرق نفس الوقت الذي تستغرقه ساعة تليها . ولا تقع اية كارثة . ستقولون لي : « هل استطيع ان اجد الوقت لعمل كل شيء ! » وسأجيبكم على الطريقة الروسية : « ما لم تموتوا قبل ، سيكون لديكم الوقت ، واذا متم قبل ، فلن يكون لديكم الوقت ! » واليكم قولا مأثورا آخر من نفس النوع من شأنه ان يساعدكم في يوم او آخر : « لا تقلقوا من الموت . فهو حين يأتيكم لن تكونوا ههنا وطالما انكم ههنا فلن يكون هنا » . المبدأ يظل نفسه : لم القلق من وضع يجد حلا لنفسه بنفسه ؟

وما ان تتعلموا عدم الاضطراب حتى يصبح بامكانكم ، ان تفعلوا اي شيء ، وبأية وتيرة من الوتائر ، وبكل الانتباه والعجلة المرجوين ، هذا بدون ان تشعروا بان الوقت يفر من امامكم او يداهمكم بسرعته . شأن ذلك كشأن الشعور الذي ينتابنا في ايام العطلة . وكما سبق واشرت اليه ، بوسعنا ان نمضي على عجل او على مهل ، دون ان نكترث للوقت ، ودون الاخذ بأي مفهوم للوقت ، فما نحن قائمون الا بما نحن نقوم به ولا نسعى وراء اي هدف محدد . وستكتشفون ان بامكانكم ان تصلوا في كل المواقف وان ليس ثمة في العالم ظرف من شأنه ان يحول دون ذلك . العائق الوحيد الحقيقي الذي يمنعكم من الصلاة يدخل حينما تتركون انفسكم لقمة سائغة للعاصفة ، حين تتركون العاصفة تلج اليكم بدل ان تتركوها تزأر من حولكم ولا تستطيع الدخول .

تذكرون ولا شك رواية الانجيل عن العاصفة التي هبت في بحر الجليل ، كان المسيح نائما في الزورق حين هبت العاصفة . في البداية ، كافح الرسل بشجاعة وبكل قواهم لئلا يهلكوا . وفي فترة من الفترات خانتهم الشجاعة واجتاحتهم العاصفة التي كانت تدور

coptic-books.blogspot.com

من حولهم وولجت الى داخلهم . وتسرب اليهم القلق والموت بعدما كانا يحومان فوقهم . واتجهوا عندئذ الى المسيح في موقف بات مألوفا لدينا في فترات التوتر والقلق : رفعنا ابصارنا نحو الله ، وشعرنا بالخجل حين رأيناه هادئا . تذكر رواية الانجيل هذا الامر مشيرة الى ان المسيح كان نائما واضعا رأسه فوق وسادة — رغم اي شيء ! هكذا تماما يكون رد فعلنا تجاه الله معظم الاحيان . كيف له أن ينعم بالسعادة الكاملة في حين انني انا امر في محنة ؟ الرسل تصرفوا تماما كما نتصرف نحن معظم الاحيان . بدل ان يقتربوا من المسيح ويقولوا له : « لانك السلام ، لانك الرب ، قل كلمة واحدة فقط وكل شيء يعود على ما يرام » ، فقد هزوه وايقظوه قائلين له : « افلا يؤثر عليك شيء ونحن مشرفون على الهلاك ؟ » ، بقول آخر : « اذا كنت لا تستطيع شيئا ، فعلى الاقل لا تنم ! اذا كنت لا تستطيع ان تقوم بعمل افضل ، فمت في القلق مثلنا على الاقل ! » وتصرف المسيح بدوره . نهض وقال لهم : « انكم اناس قليلو الايمان ! » وابعدهم بحركة منه واتجه الى العاصفة وسلط عليها صفاءه الداخلي واتزانه وسلامه وامر : « السكوت ! اهدئي ! » وكل شيء عاد الى الهدوء .

بمقدورنا التصرف على هذا النحو بل يجب ان نتوصل الى ذلك . ولكن يلزمنا هنا كما في الميادين الاخرى تدريب جذري وذكي . تعلموا السيطرة على الوقت ، وستصبحون قادرين — كيفما عملتم ، ومهما كان مبلغ توتركم في قلب العاصفة وفي خضم المآسي او وسط بلبلة الحياة العصرية — قادرين على الوقوف بهدوء وثبات في الحاضر ، امام الله ، وفي حالتي الصمت او الحوار . فاذا خاطبتم الله ، آتوه بكل ما يحيط بكم ، بكل العاصفة . واذا لزمتم الصمت فبوسعكم ان تستريحوا بسلام في « عين » الاعصار والهيجان ، تاركين العاصفة تزمجر من حولكم وانتم تقفون في نفس المكان الذي يقف فيه الله ، في نقطة السكون الابدي فقط . لكن نقطة السكون الابدي ليست بالمكان الذي لا يعرف حدوث اي شيء ، فهي نقطة التقاء كل انواع التوتر المتنازعة ومركز تبدد هذه النزاعات حيث تتلقفها يد الله القادرة .

coptic-books.blogspot.com

والسكون الاصيل على جانب عظيم من القوة ، له كثافة حقيقية ، وهو شيء حي واقعيا . وتعود بي الذاكرة الى سيرة اباء الصحراء اذ طلب الاخوة الى احدهم ان يلقي بعض الاقوال البناءة بمناسبة زيارة احد الاساقفة فرفض قائلا : « اذا كان سكوتي لا يكلمه ، فلن يكون لاقوالي اي جدوى » . علينا ان نحاول التعرف على سكوت كهذا السكوت ونسعى اليه . اما كيف السبيل لبلوغه ؟ لعل بامكاني ان اساعدكم بواسطة هذا الرمز او هذه الصورة :

حينما نكون راغبين بمباغتة العصافير او مراقبتها عند نهوضها صباحا في الغابات او الحقول ، يتوجب علينا ان ننهض قبلها . كما يجب ان نكون مستيقظين تماما بكل نشاط واستعداد وتيقظ قبل ان يفتح اول عصفور عينيه ، وقبل ان تدرك العصافير ان الفجر قد بزغ . يجب ان نقصد الى الحقول او الغابات لنختبىء فيها دون ان نأتي بحركة ، ونلتزم الصمت ، ونعمد للاسترخاء التام ، مخافة ان نعكر صفاء نوم النائمين الصغار ، فنراها تهرب الى البعيد مرتاعة ، الى حيث لا نعود قادرين على سماعها او مراقبتها . من يرصد العصافير عليه ان يكون ثابتا هادئا مرتاحا دائم التربص . فلو فكر بالاحلام التي حرم منها في نومه القصير ، فان هذه العصافير ستصبح بعيدة جدا اذا ما استيقظ مع طلوع الشمس وحرارتها . والتزام الهدوء والاسترخاء ، ذاك توازن صعب ، واستعداد تأملي لصمت تأملي : فمن جهة استعداد يقظ يمكن — في وسط الانفتاح العقلي التام المتحرر من كل اوهام مسبقة او توقعات مقبلة — من تلقي الصدمة الناجمة عما يصادف في الطريق . ومن جهة اخرى سلام يمكن من استقبال هذه الصدمة موضوعيا بدون ان تنعكس فيها الصورة المدمرة النابعة من اي حلم داخلي .

قبل نحو عشرين سنة ، بعيد سيامتي كاهنا ، جرى ارسالي قبل عيد الميلاد الى احد مآوي العجزة . وجاءت احدى النزيلات — توفيت بعد ذلك عن مائة وسنتين — لتقابلني بعد اول ليتورجيا اقمتها في ذلك المكان وسألتني :

— يا ابت ، اريد ان تعطيني بعض التوجيهات بشأن الصلاة .

coptic-books.blogspot.com

ولما اشرت عليها بتوجيه الطلب لأشخاص آخرين ممن تعرفهم قالت :

ـــ منذ سنوات وانا اسأل حول الموضوع اناسا عرفوا بخبرتهم فيه ولم اتوصل قط للحصول على اجابة معقولة ! لذلك فكرت بانك قد تكون لا تعرف شيئا عن المسألة ، لذا فان بوسعك اعطائي الجواب الشافي .

كانت مقدمة مشجعة ! فسألتها :

ـــ ما قضيتك ؟

ـــ منذ اربعة عشر عاما ، وانا اتلو بصورة متواصلة تقريبا صلاة يسوع ولم اشعر ابدا بحضور الله !

وعبرت لها عن رأيي كيفما اتفق :

ـــ اذا كنت تتحدثين كل الوقت ، فأنت لا تتركين لله امكانية قول كلمة واحدة !

ـــ ما الذي يجب ان افعله ؟

ـــ التفتي لغرفتك بعد الفطور ، رتبي اشياءها ، ضعي مقعدك في وضع استراتيجي بحيث تديرين ظهرك لكل الزوايا المعتمة التي تدس فيها العجائز كل ما يردن اخفاءه . ثم اضيئي المصباح الصغير امام ايقونتك . وفي البداية تفحصي غرفتك . اكتفي بالجلوس ، وتطلعي في ما حولك وحاولي ان تري اين تقيمين لأنني متأكد من انك ، اذا كنت لم تنقطعي عن الصلاة منذ اربع عشرة سنة ، فأنت لم تنظري الى غرفتك منذ زمان بعيد . تناولي بعد ذلك العدة واشرعي في الحياكة لمدة ربع ساعة في حضور الله ، لكنني احظر عليك التفوه بأية عبارة من عبارات الصلاة ! اكتفي بالحياكة وحاولي ان تأنسي بهدوء غرفتك .

لم تكن النصيحة بالنسبة اليها روحية بنوع خاص لكنها امتثلت لها . وعادت لمقابلتي بعد فترة من الزمن .

coptic-books.blogspot.com

— هل تعرف ، السير على ما يرام .
وسألتها وكلي فضول لمعرفة نتيجة ما اسديته من نصائح :

— ما الذي يسير ؟ ما الذي يجري ؟

— عملت بنصائحك تماما . ففي كل يوم بعد النهوض اعد نفسي واتناول فطوري ثم اعود لغرفتي . تأكدت ان ما من شيء يقلقني وجلست على كنبتي قائلة في نفسي : « يا للدهشة ! لدي ربع ساعة استطيع فيها الا افعل شيئا دون ان اشعر بتأنيب الضمير ! » وجلت بناظري في ارجاء الغرفة ولاول مرة منذ سنوات قلت في نفسي : « رباه ! اني اقيم في غرفة جميلة حقا : نافذتها مطلة على الحديقة ، واتساعها مناسب ، انها حجرة فسيحة استطعت فيها أن اضع كامل الاثاث الذي جمعته منذ سنوات » . ورايتني اعيش اياما وادعة لأن غرفتي كانت هادئة . دقات ساعة الحائط كانت تسمع لكنها لم تكن لتعكر السكون ، بل على العكس من ذلك كانت تقوي درجة السكون . وتذكرت بعد فترة بأن علي ان ابدأ الحياكة في حضور الله ولذلك تناولت العدة وتسرب الى داخلي وعي للسكون اعمق فأعمق . كنت اسمع خشخشة الصنارتين وهما تلامسان ذراع الكنبة ، والدقات الوادعة لساعة الحائط . ما من شيء كان يشغلني ، ولم اكن باية حاجة للتوتر . وفجأة شعرت بأن هذا السكون لم يكن مجرد غياب الضجة بل ان له مادة . لم يكن يعني غياب شيء بل حضور شيء آخر . كان سكونا كثيفا ومليئا ذاك الذي غمرني . فالسكون المحيط بي كان يأتي تدريجيا لملاقاة سكوني الداخلي .

وانهت كلامها بملاحظة جميلة جدا لفتتها بعد ذلك عند برنانوس ، قالت : « فجأة ادركت ان الصمت كان حضورا . وفي قلب هذا الصمت كان ذلك الذي هو الهدوء والسلام والتوافق » .

وعاشت بعد ذلك نحو عشر سنوات وكانت تقول ان بامكانها دائما العثور على الصمت كلما كانت هادئة صامتة . لا يعني ذلك انها انقطعت عن الصلاة بل انه كان بامكانها المحافظة على هذا الصمت التأملي لبعض الوقت . وما ان يبدأ فكرها بالتململ حتى

coptic-books.blogspot.com

تبدأ الصلاة الصوتية الى ان تعود الى سلامها . ثم لا تتأخر بعد ذلك عن معاودة صمتها من جديد .

بمقدورنا معظم الاحيان ان نقوم بالتجربة نفسها اذا كنا ــ بدل ان نقدم على اي شيء مهما كان الثمن ــ اذا كنا نكتفي بالقول : « انا موجود في حضرة الله ، فيا للسعادة ! ولنكف عن الحركة ! » تعرفون ولا شك في سيرة كاهن آرس العبارة المتعلقة بالفلاح العجوز الذي كان يقضي ساعات طويلة في الكنيسة دون ان يأتي بحركة او ان يعمل شيئا . وقد اجاب الكاهن الذي سأله : « ما الذي تفعله طيلة هذا الوقت كله ! » بقوله : « انا اراه وهو يراني ! »

لا يمكننا في الصلاة بلوغ هذه الدرجة ما لم نستطع الوصول الى نوع معين من الصمت . علينا ان نبدأ بسكوت الشفاه ، وسكوت الاحساس ، وسكوت الجسد . لكنه من الخطأ الظن ان بامكاننا البدء من نقطة النهاية ، اي من سكوت القلب والفكر . علينا ان نبدأ بفرض الصمت على شفاهنا ، وعلى جسدنا ونحن نتعلم كيف نحافظ على هدوئنا ، وكيف نسترخي دون ان نقع فريسة الاحلام او اللامبالاة . يجب علينا ان نكون ــ على حد تعبير احد قديسينا الروس ــ كوتر الكمان « المدوزن » على نحو يعطي العلامة الموسيقية الصحيحة ، وتر ليس مشدودا الى حد يصبح معه عرضة للتقطع ولا رخوا لا يصلح لسوى الاهتزاز . انطلاقا من هنا علينا ان نتعلم الاصغاء للصمت ، والمحافظة على السلام المطلق ، علنا نكتشف عندئذ وفي اغلب الاحيان كم هي صادقة تلك الكلمات التي وردت في رؤيا يوحنا : « ها انذا واقف على الباب اقرعه » .

وسنرى في الفصل المقبل ما هي الشروط الاساسية اللازمة لكي تمكننا صلاتنا من التوجه الى الله والتحدث اليه .

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

الفصل الخامس

الحوار مع الله

بودي ان اتحدث في هذا الفصل عن الفترة التي تصبح الصلاة فيها بالنسبة لنا ممكنة وحية . فمن الواضح بعد الذي سبق وبعد الفرضيات التي كنا نجدها في عمق الصورة عبر الصفحات ، ان الصلاة علاقة ، ولقاء ، وشكل من اشكال الاتصال بالله الحي . وتأتي فترة تدب فيها الحياة في هذه العلاقة . وطالما نحن بصدد الحديث عن العلاقات ، بودي ان انطلق من اعتبار له اهميته بالنسبة للصلاة وللعلاقات الانسانية على حد سواء .

تصبح العلاقة شخصية وحقيقية حينما نبدأ تمييز شخص ما وسط الجمهور ، اي عندما يصبح هذا الشخص فريدا ، يتخذ له قيمة بحد ذاته ولا يعود مغفلا . ابتكر احدهم تعبير « الجماعات المغفلة » وهي الجماعات التي تضم اعضاء يشار اليهم بتعابير عامة « كالمكلفين » مثلا ، بدل ان يكون لهم اسماء اولى وعائلات وصفات وشخصية مميزة . في علاقاتنا مع الاخرين ، كثيرا ما يتردد على مسامعنا الضمير المجهول « هم » الذي يعبر عن اغفال الاسم . ونتحدث بضمير الغائب حينما يبدو لنا ونحن نتحدث عن شخصين

coptic-books.blogspot.com

ان من السهل استبدال واحدهما بالاخر اذا كنا نعني العلاقة الوظيفية وليس العلاقة الشخصية الانسانية . هذه الوظيفة يمكن ان يقوم بها شخص آخر ولكن ما من احد يستطيع ان يحل محل الشخص كانسان معين . والعلاقة تصبح حقيقية منذ اللحظة التي نفكر فيها بشخص في صيغة ضمير المخاطب المفرد وليس ضمير الجمع ، نقول « انت » لا « انتم » ، فتبديل الضمير ليس من الامور التي لا يستغنى عنها لأن الامر في الواقع يتناول تغييرا داخليا . انا متأكد من انكم تعرفون جيدا ان بالامكان مع اي شخص اقامة علاقة بصيغة « انا » الى « انت » او علاقة « انا » الى « هو » بضمير الغائب .

والصلاة تبدأ اذا منذ اللحظة التي يجري فيها التفكير بالله ليس بصيغة « الهو » ، و « الكلي القدرة » وما الى ذلك بل عندما يصبح بامكاننا ان نخاطبه بضمير المخاطب « انت » ، اي حين لا نعبر عن علاقتنا به في صيغة ضمير المفرد الغائب ، بل بضمير المتكلم وضمير المخاطب . خذوا امثالا سفر ايوب ، وجميع المناسبات الواردة في الكتاب المقدس ، وفي مجرى الحياة بشكل عام فضلا عن سير القديسين والخطاة وجميع الذين عرفوا انواع التوتر والنزاعات الداخلية العنيفة ، ذاك ان هناك تجربة شخصية ، حيثما كان التوتر والنزاع . ولا يسعنا ان نسمي صلاة كل علاقة مع الله تمتاز بالحذر والتباعد والبرودة . وطالما انه يوجد بيننا وبينه طابع رسمي ، وطالما اننا لا نستطيع التوجه اليه الا عن طريق الخطب والاعمال المعقدة التي لا تنتهي ، طالما ان الامر كذلك فلسنا بعد قادرين على تأدية الصلاة الحقيقية . ولكن تأتي لحظة نتخلى فيها عن كل ذلك ونصل اليه ونستخدم ضميري المتكلم والمخاطب المفردين . نقول « انا » ونأمل بأن يصبح بمثابة « الانت » ، الانت المفردة الوحيدة وليس « الانتم » الرسمية المهذبة .

ثم ان هناك في كل العلاقات الانسانية فترة نبحث فيها عن اسم يعطى للكائن المحبوب . ولا اتكلم هنا عن اسم العائلة ، ذاك الاسم العام والفارغ من المعنى ، لكنني اتحدث عن الفترة التي نبدأ فيها بادراك التعاطف السري الموجود بين الصديق واحد الاسماء . جميعنا يعلم مثلا الى اي حد يمكن للعتب ان يكون شخصيا سواء

coptic-books.blogspot.com

بالمعنى الايجابي او السلبي . وقد يكون تعبيرا عن الرغبة في سحق احد الاشخاص ، او حذف اسمه من ضمن الجماعة ، او تقويض اواصر الصداقة بين شخصين . ولكن يمكن استخدامه ايضا من قبل شخصين او من قبل بعض الاشخاص القلائل الذين اتحدوا بعمق في ما بينهم ومن صميم القلب بحيث يصبح هذا اللقب منبها خاصا لهم ، وذلك لشدة ما هو شخصي . وبكلام آخر ، انه بقدر ما يكون غير معقول ، بقدر ما هو شخصي ، لأنه لا يتبادر الى ذهن احد ، باستثناء الشخص الذي ابتكره .

هناك ايضا اسم العائلة . واسم العائلة يبدو لنا معظم الاحيان غريبا ، مجردا ، كعبارة « الانسانية » . فكم من الاشخاص يحملون اسم العائلة الواحدة ! على اننا لو نظرنا اليهم عن كثب وفي اطار العلاقات الانسانية ، للاحظنا ان الاسم هو اشارة مميزة لجماعة طيلة اجيال واجيال عبر تاريخ الانسانية ، ثمة ناس كثيرون حملوا هذا الاسم ، اناس من لحمنا ودمنا ، حياتهم لا تزال سارية في عظامنا وفي ارثنا وفي نفوسنا . اجل ربطنا هذا الاسم بالاجيال السالفة ولعله سيربطنا ايضا بالاجيال المقبلة ليكون — بفضل صلات الزواج والعائلة — شبكة من الاشخاص المتحدين باواصر الارتباط العميق . ولو شئنا الان ، بدل ان نفكر بمفهوم اسماء العائلات ، ان نفكر بمفهوم الوراثة وشجرة العائلة ، افلا نجد في اثنين من الاناجيل شيئا عن المسيح منطبقا كل الانطباق على ما نقوله ؟ الا تدل شجرة العائلة هي ايضا على الصلة التي تربط عبر الاجيال بين كائنات بشرية معينة ؟ يمكننا اذا ان نعنى كثيرا باسماء العائلات لأنها تحمل في عبارة واحدة كل ماضينا . ولو فكرنا بالنسبة للآخرين حسب هذه الرؤيا لوجدنا انه حتى اسماء العائلات يمكن ان تصبح حية . وبدل ان تعبر ، على غرار اللقب ، عما يتميز به شخص من الاشخاص بحد ذاته وفي اطار علاقته معنا ، نراها تصلنا فجأة بهذا الشخص الفريد وبأولئك الاشخاص الذين لا يحصى عددهم .

هناك ايضا الاسم الاول ، الاسم الذي يحمله عند المعمودية . انه الاسم الذي بواسطته يتملك الله كل من تعمد . اسم المعمودية يصل صاحبه بالله لأنه حين يحمله يموت ويبعث مع المسيح . كما

coptic-books.blogspot.com

يصله ايضا بجميع اولئك الذين اتخذوا الاسم نفسه وقبل كل شيء بذاك الذي جعل او تلك التي جعلت من اسم وثني اسما مسيحيا ، واعني اول قديس ادخله في الكنيسة .

كما ونحمل ايضا اسما آخر نجهله . تذكرون مقطعا من رؤيا يوحنا وفيه يشير الى انه في ملكوت الله سيتلقى كل واحد حصاة بيضاء عليها كتب اسم لا يعرفه الا الله والشخص الذي تلقى الحصاة . ليس هذا لقبا او اسم عائلة او حتى اسما اول ، لكنه اسم او كلمة تكون مثلنا تماما كلمة منطبقة علينا بل هي نحن ، حتى لنقول تقريبا انها الكلام الذي نطق به الله حين خلقنا ، الكلام الذي هو نحن والذي نحن هو . ويعبر هذا الاسم تماما عما هو فريد فينا بنظر الله . وما من احد يستطيع ان يعرف هذا الاسم ، كما انه في خاتمة المطاف ليس في مقدور اي انسان ان يعرف انسانا آخر كما يعرفه الله . ومع ذلك فان من هذا الاسم يتأتى كل ما هو معروف عن كل منا .

لعلكم ، تتساءلون عن سبب تشددي في الاهتمام بالاسماء . ذلك انه اذا كانت صلاتنا تعبيرا عن صلتنا المباشرة بالله عن طريق الاتصال الشخصي ، فهي ايضا تعبير عن صلتنا بكل العالم الخارجي . لأننا حينما يصلي بعضنا لأجل بعضنا الآخر ، نكون قد نقلنا لله الاسماء دون غيرها . على ان هذه الاسماء اما ان تكون غنية بالدلالة واما خاوية تماما من كل معنى ، وذلك وفق الظروف وبمقدار ما نحن قادرون على ادراك عمق ما نقول . فلو اقتصرنا امام الله على سرد اسماء الاشخاص ونحن لا نرى في كل منها سوى علامة مميزة ليس لها اي عمق ، تكون علاقتنا اذ ذاك فقيرة جدا . اما اذا تلفظنا باسم واضفينا عليه بعضا من الدلالة التي عرضتها قبل قليل ، فلا تعود صلاتنا مجرد تقدمة شخص ما وضعت على كلتا يديه المبسوطتين ، بل هي تربطنا بهذا الشخص بكل ما اوتينا من قوة ، ليست قوة الرافة والمحبة بل هي تتمثل بعمق الاقتداء والمشاركة والتضامن ، وهذا ما يعطيها ميزتها الخاصة .

ويبقى الشيء نفسه بالنسبة لميدان آخر . طالما اننا لم نجد بعد لله الاسم الذي يلائمه ، فلا سبيل لنا للوصول اليه بكل حرية

coptic-books.blogspot.com

وواقعية وفي جو من الفرح . وطالما اننا نقتصر على تسمية الله باسماء « مجردة » مثل « الكلي القدرة » و « الرب » ، وطالما اننا نستبق هذه التسميات بأدوات تجعلها مغفلة وتحولها لتعابير عائدة للجنس فلن نتمكن من استخدام هذه الاسماء كأسماء اشخاص . ومع ذلك هناك فترات لا يستطيع فيها الكتاب القديسون مثلا ان يحفظوا كلمة هي اشبه باللقب ، كلمة لم يفكر فيها اي انسان آخر ، وفي حدود الممكن والمستحيل ، وليست هي ممكنة الا بسبب العلاقة التي تبررها . فكروا بالمزامير التي يهتف فيها داود بعد عدة ابيات معتدلة : « انت ، يا فرحي ! » منذ هذه اللحظة بالذات تدب الحياة في المزمور . ان نخاطب الله بقولنا : « انت ، يا رب ! » « انت القادر على كل شيء » يعني ان نقيم لله اعتبارات يقيمها هو عن نفسه . وكم هو الفارق كبير حينما نهتف : « انت يا فرحي ! » عندما نتوصل لمخاطبة الله بقولنا « انت يا فرحي » يصبح من الممكن ان نقول ايضا « انت ، يا الهي ، انت الذي تتشبث بصميم حياتي كالعذاب ، كالسؤال ، كحجر الزاوية ! » عندما نصبح قادرين على مخاطبته بمشاعرنا ، عندئذ نكون قد اقمنا معه علاقة صلاة .

لهذا اصبح من المهم ان نسعى لمعرفة الاسماء التي يمكننا ان نعطيها لله . قد تتنوع هذه التسميات في البداية حسب الظروف . وفي بعض اللحظات يصبح بمقدورنا ان نبصر شكلا من اشكال علاقتنا بالله . اما في فترات اخرى فثمة اشكال اخرى تبهرنا تماما كما في علاقات الصداقة نرانا لا نختار صيغة واحدة للتعبير عن عاطفتنا بل مجموعة من الالوان والدقائق المميزة . « فضابط الكل » ، و « الرب » ، و « الخالق » ، و « العناية الالهية » ، و « الحكمة » ، كلها اسماء تمر امامنا . لكن بوسعنا ايضا ان نلجأ لهذا الاسم البسيط يسوع ، الاسم الذي لو تجرأت لسميته اسم المعمودية .

ولعل القول بان للمسيح اسم معمودية او اسما مسيحيا كما يقول الانكليز ، يبدو غريبا ، وآمل هنا ان تفهموني . هذا ما يذكرني بالنقاش الذي دار بين احدى نساء رعيتي المسيحية وبين زوجها غير المؤمن . كان هذا الاخير يحاول ان يبرهن لها طيلة اربعين سنة

coptic-books.blogspot.com

ان المسيحية ليس لها قيمة . وذات يوم ضاقت ذرعا به وصاحت في وجهه : « كيف يمكنك ان تتكلم على هذا النحو ، والله الذي كان يهوديا اصبح مسيحيا ! » وانتم حين تسمعونني ابدي بان « يسوع » اسم مسيحي ، لعلكم ستفكرون بان وجهة نظري هي بمثل سذاجة وجهة نظر المرأة التي ذكرتها . على ان يسوع اسم انسان ، اول اسم انسان يرد في قوانين الكنيسة . فلو تذكرنا ذلك ، ولو ادركنا الصلة الوثيقة التي يوجدها هذا الامر بينه وبيننا ، سنفهم آنئذ كيف ان اجيالا كاملة من المسيحيين ركزت كل حياتها على ذاك الاسم الذي هو يسوع . وليس مرد ذلك ولا شك الى ان القديس بولس قال : « تجثو لاسم يسوع كل ركبة » . فصحة هذا القول لا تكفي وحدها لاثارة الايمان والمحبة ، وهذا التعبير مشابه بدوره للتعابير الاخرى من امثال « ضابط الكل » و « الرب » التي تحدثنا عنها . ان اسم يسوع ، اسم حي وحقيقي ، اسم انسان . وسيراود اذهانكم ولا شك اسماء اخرى . وانا اكيد من انه لو فاتكم ذات يوم ان تدركوا معنى « انت فرحي ! » او اي هتاف مشابه ، فذلك انكم اكتشفتم بينكم وبين الله نوعا من العلاقة الشخصية بالنسبة اليكم ، علاقة لا تستطيعون الاشتراك فيها مع الكثير من الاشخاص الاخرين . انا لا اقول ان عليكم الا تشاركوا في هذه العلاقة . فنحن نخاطب الله بكلمات مأخوذة من التراث المشترك للانسانية ، لكن ثمة كلمات تخصكم انتم وحدكم او انا وحدي ، تماما كما نصادف على صعيد العلاقات الانسانية اسماء عائلات او اسماء اولى او القابا . فمن الرائع حقا ان تتوصلوا لايجاد لقب لله ، ايجاد اسم تضعون فيه كل حرارة قلوبكم ، وكل ما اوتيتم من قدرة . ويصبح هذا اللقب عبارة عن طريقة خاصة بكم تخاطبون بها الله لتقولوا له : « انظر كيف انني بمميزاتي الفريدة ، ادركك بمميزاتك الفريدة » .

ولو توصلتم وانتم تبحثون عن اي مكان بالضبط بلغتم في علاقتكم مع الله ، والى اي حد لا تزالون غرباء عنه ، لو توصلتم ان تقرعوا الباب ، وتلجوا اكثر فاكثر الى داخل نفوسكم ، وتوجهوا صلاتكم **ضد انفسكم** ، وتصلوا الى النقطة التي يوجد فيها بالفعل باب تطرقونه ، الى النقطة التي يمكن فيها لهذا الباب ان ينفتح ، فستأتي اللحظة التي سينفتح فيها الباب فعلا ، عندها يجب ان يكون لديكم اسم معد لله . كما يجب ان تخاطبوه باسم يبين له

coptic-books.blogspot.com

انكم **أنتم بالذات** تبحثون عنه وليس اي كائن بشري مبتذل يبحث عن اله مغفل الاسم .

وستتعرفون طيلة مسيرة سعيكم على صنوف الالم والقلق والامل والانتظار وعلى كافة الوان الانفعالات الانسانية . ويكون الله بالنسبة اليكم ذاك الذي نرغب فيه بشغف ويضن علينا باللقاء ، ذاك الذي نحترق شوقا اليه ، ونكرهه اذا ما ابتعد ، ذاك الذي نحبه اكثر من اي شيء ، وبدونه لا يمكن ان نحيى ، ولا نغفر له التظاهر بعدم سماعنا ... وانطلاقا من تجربة مسيرتكم ، ومن سعيكم وراء « الكمال » ستتولد فيكم كلمات بوسعكم ان تقدموها لله ، كلمات هي في الحقيقة من صلبكم . واذا ما تشابهت مع اقوال كثيرة يرددها آخرون ، فلا يمكن اعتبارها رغم ذلك من الكلمات المغفلة ، بل تكون كلمات يقاسمكم فيها آخرون ، لكنها في الحقيقة لكم . ولكن عليكم الا تستخدموا كلمات تختارونها من القاموس ، كلمات ليست منكم ابدا ! وحينما تسمعون خشخشة السلاسل ، وحينما يبدو لكم ان الباب على وشك ان ينفتح ، اندفعوا لابداء الكلمات التي تخصكم وسموا الله بالاسم الذي اكتسبه في حياتكم ، عندها ستلتقون معه . وفي تلك العلاقة التي لا تنفك تتعمق وتخصب في المراحل التالية ، سيكون لديكم الوقت لاكتشاف اسماء اخرى ، ومحو الكلمات المعبرة عن الكراهية والقلق . اذ ذاك ستقولون ما قاله الشهداء الذين ورد ذكرهم في رؤيا القديس يوحنا : « قويمة دروبكم وصحيحة » (الرؤيا ١٥ ، ٣) . وستمحو كلماتكم مذ ذاك كل تعابير المرارة وكل الاسماء الدالة على القساوة. لكنكم ستحافظون على تعابيركم الخاصة بكم والصادرة حقا عنكم ، وستصبح هذه الاقوال بمثابة تعبير عن العلاقة الاصيلة مع الله ، وعن السبيل الحقيقي للاتحاد به .

يبدو لي انني اوضحت بشكل ملموس « كيف نتعلم الصلاة » حتى يصبح بامكانكم ان تتدربوا عليها . بالطبع كان علي ان اسهب في شرح هذا الموضوع واتطرق لمسائل اخرى . ولكن حاولوا مع ذلك ان تدربوا انفسكم بالطريقة التي اشرت عليكم بها ، وسترون انكم لا تضيعون وقتكم . ابحثوا عن اسم الله ، فان لم تجدوه فلا تعجبوا ان لم يسمعكم احد ، لانكم في الواقع لا تنادون !

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

الفصل السادس

منهلان من التأمل
والدة الاله

هناك طرازان من الايقونات الممثلة لوالدة الاله . والنوع الشائع هو الذي نجده في الشرق والغرب ويمثل العذراء حاملة الطفل . هذا الشكل هو اكثر من صورة او رسم لوالدة الاله . انها صورة التجسد ، واثبات للتجسد وحقيقته . وهي ايضا اثبات لحقيقة وصحة امومة العذراء . ولو امعنا النظر في الايقونة ، نلاحظ ان والدة الاله وهي تأخذ الطفل بين يديها لا تنظر اليه ابدا . في جميع هذه الايقونات ، نراها لا تتطلع الى من ينظر اليها كما لا تتطلع نحو البعيد ، بل ان عينيها المفتوحتين المحدقتين تنظران الى داخل نفسها ، بحيث انها غارقة في تأمل حاد . وهي لا تنظر كذلك الى الاشياء الخارجية . وتعبر عن حنوها بيديها الخجولتين ، اذ تحمل الطفل دون ان تضمه اليها . تمسك به ، كأنها تمسك بشيء مقدس يجري تقديمه قربانا والطفل بالذات لا الام هو الذي يعبر عن كل الحنو والحب الانساني . وتبقى هي اما لله ،

coptic-books.blogspot.com

لا تعامل الطفل على انه « يسوع الصغير » بل تعامله على اساس انه ابن الله المتجسد ، الذي اصبح ابنا للعذراء وهو ـــ الذي باعتباره انسانا حقيقيا والها حقيقيا ـــ يعبر عن كل محبة وحنو صادرين عن انسان وعن اله تجاه تلك التي هي في نفس الوقت أمه وخليقته .

وهناك صورة اخرى ـــ وهذه نادرة جدا ـــ هي صورة والدة الاله ، وحدها هذه المرة ، بدون ظهور مرئي للمسيح . اعني بنوع خاص احدى الايقونات الروسية من القرن السابع عشر . نحن امام فلاحة روسية ، سافرة ، تحيط عصابة بوجهها الذي يكاد يكون مربعا . عيناها واسعتان تتطلعان ـــ ليس الى ما يبدو امام ناظريها ـــ ولكن الى اللانهاية او الى الاعماق التي لا يمكن سبر اغوارها . واذا انعمنا النظر بشكل ادق ، نبصر بيدين ، يدين يشكل مكانهما الفريد تحديا لعلم التشريح . فهما ليستا عنصرين في لوحة واقعية ، بل تعبران عما يعجز الوجه او الايدي او الاعين ان تعبر عنه بدون ان تفقد قدرتها على التعبير عن شيء اهم . انهما يدان للقلق . واخيرا في زاوية الايقونة ، في مكان غير مرئي تقريبا ، يبدو بلون اصفر باهت على عمق اصفر باهت ، هضبة وصليب بدون مصلوب . هذه العذراء هي الام التي تشهد صلب ابنها الوحيد وموته .

ان علينا ونحن نتجه بصلاتنا الى والدة الاله ، ان نكون اكثر وعيا ، مما نحن عادة في معظم الاحيان ، بأن صلاتنا الموجهة الى والدة الاله تعني : « ايتها الام » . ومن المدهش حقا ان والدة الاله ـــ كما يوضح الانجيل ـــ تفهمنا باننا لا نستطيع ان نقول لها شيئا آخر ، حيث انها تمنحنا الجراة على توجيه هذه الصلاة اليها . انها بالنسبة الينا والدة الاله وهي التي ادخلت الله نفسه الى هذه الارض . من هنا سبب تأكيدنا على عبارة « والدة الاله » . فيها جعل الله نفسه انسانا . وبها نشأ في ظروف وضعنا الانساني . فهي ليست بالنسبة الينا اداة التجسد فقط . بل انها تلك التي كان استسلامها الشخصي لله ، حبها لله ، واستعدادها المطلق لتلبية كل ما يريده الله ، فضلا عن تواضعها بالمعنى الذي سبق شرحه ـــ كل ذلك كان وراء ولادة الله منها . ولأحد كبار قديسينا ولاهوتيينا هذه الملاحظة بصددها : « لقد كان التجسد مستحيلا بدون الاشارة

coptic-books.blogspot.com

الى العذراء بعبارة **هانذا امة للرب** تماما مثلما كان مستحيلا بدون ارادة الاب » . هكذا نكتشف في هذا السر تعاونا كاملا بينهــا وبين الله . في رواية بعنوان « الكل يبارك حواء » يعبر الكاتب الانكليزي شارلز وليامز ، بشكل رائع كما يبدو لي ، عما اريد الاشارة اليــه بالنسبة للتجسد وموقف العذراء . يقول ان طابع التجسد الفريــد يتأتى من انه « ذات يوم ، تمكنت عذراء من بني اسرائيل ان تتلفظ بالاسم المقدس من كل عقلها وقلبها وكيانها وجسدهــا ، بحيــث اصبحت الكلمة فيها من لحم ودم » . تشكل هذه السطــور بيانــا لاهوتيا بليغا يبين لنا مكانة العذراء في فعل التجسد .

نحب العذراء مريم ، لعلنا نرى فيها على نحو مميز جدا ، كلمة الله تقول كما يعبر بولس «قوتي في الضعف تكمن » . نرى هــذه العذراء الناحلة من بني اسرائيل ، هذه الفتاة الشابة تقهر الخطيئة ، تقهر الجحيم وتعبر كافة الحواجز بقدرة الله التي هي فيها . لــذا فانما في اوقات الاضطهاد مثلا ، حين لا تتمثل ارادة الله الا من خلال الضعف ، نرى العذراء الطوباوية مريم تنتصب امام اعيننا بمثــل تلك العجائبية والقوة . فهي ان قيض لها ان تقهر الارض والجحيم فلكي تكون لنا ذلك الحصن المنيع ، ذلك الانسان الذي يشفــع لنــا ويخلصنا . ونشير الى انها دائما في اقصى درجات الوفــاق مــع ارادة الله ، وفي اعلى مراتب التناغم مع الرغبة الالهية ، ونحن اذ نوجه اليها ذاك الرجاء الخاص بها وبالله فقط : « خلصينا !! » لا نقول « صلي لأجلنا !» .

الراهب سلوان [١]

سنة ١٩٣٨ توفي راهب من رهبان جبل آثوس . كان انسانــا بسيطا جدا ، انه فلاح روسي قدم الى الدير في نحو العشرين من عمره وقضى فيه سحابة خمسين سنة . بساطته كانت مشهورة . قصد الى جبل آثوس بعد ان قرأ في احد الاسفار عن الجبل المقدس

(١) راجع الراهب سلوان والحرب اللامنظورة ، منشورات النور .

coptic-books.blogspot.com

ان والدة الاله قد وعدت بالشفاعة والصلاة لأجل كل من يقوم بخدمة الله في احد اديرة جبل آثوس . وهكذا هجر قريته قائلا : « اذا كانت والدة الاله على استعداد لتتعهدني فلأقصد الجبل المقدس وستتولى هي امر خلاصي » . كان انسانا مدهشا اشرف سنوات طويلة على مشاغل عمال ادلين ، حيث يعمل شبان روس كانوا يمضون عاما او عامين في جبل آثوس ليجمعوا ، قرشا بعد قرش ، بضع مئات من الليرات ، وهو المبلغ الذي يمكنهم بعد العودة الى قراهم من تأسيس بيت وبناء كوخ وشراء بذار لازم لأول موسم .

ذات يوم ، سأله رهبان آخرون من المشرفين على مشاغل اخرى : « ايها الاب سلوان ، ما السر في ان شغيلتك يعملون باتقان ملحوظ وانت لا تراقبهم ، حين نجد شغيلتنا وهم دائما تحت المراقبة ، يسعون لخداعنا طيلة الوقت ؟ » .

واجاب الاب سلوان : « لا ادري . كل ما استطيع ان اقوله هو ان اشرح لكم كيف اعمل . في الصباح ، لا ادخل ابدا الى المشغل قبل ان اصلي اولا لاجل جميع هؤلاء الشبان الطيبين . اذهب اليهم بقلب ملؤه الرافة والمحبة وعندما ادخل المشغل احبهم الى حد ان دموع المحبة تغمر روحي .واوزع عليهم مهام النهار ، وبما انني عازم على الصلاة لأجلهم طيلة ساعات العمل ، اقفل عائدا الى حجرتي واصلي لكل واحد منهم بمفرده . اضع نفسي بمواجهة الله واقول له : « يا ربي ، تذكر نيقولا . انه شاب ، اليوم اتم العشرين ترك زوجته في القرية وهي اصغر منه سنا وكذلك ولده البكر . فهلا تصورت درجة البؤس التي حملته على هجر زوجته وابنه ، وذلك لعجزه عن اعالتهما عن طريق شغله هناك ؟ اسهر عليهما في غيابه . احفظهما من كل اذى . اعطه الشجاعة لتمضية السنة هنا كي يعود بعدئذ الى روسيا حيث يلاقي ذويه وسط الفرح ، حاملا ما يكفي من مال ، مسلحا بالشجاعة التي تمكنه من مواجهة الصعاب » .

وتابع كلامه : « في البداية ، كنت اصلي بدموع الرافة لأجل نيقولا وزوجته الفتية وولدهما الصغير ، ولكن بمقدار ما ازدادت صلاتي كنت اشعر بالحضور الالهي يغمرني اكثر فأكثر . حتى انه

coptic-books.blogspot.com

اصبح خلال فترة من الفترات من الحدة بحيث غاب عن نظري نيقولا وزوجته وابنهما ، واحتياجاتهما وتربيتهما ، ولم اعد ادرك سوى الله وحده . وشعوري بحضور الله قادني الى تأمل اكثر فأكثر عمقا . فجأة وفي غمرة هذا الحضور نفسه ، لاقيت محبة الله ، وفي وسط تلك المحبة ، كان نيقولا وزوجته الفتية والطفل . عندها عدت للصلاة من اجلهم بمحبة الله نفسها . لكنني احسست بنفسي مذ ذاك منجذبا نحو اعماق سحيقة عثرت في قعرها مرة اخرى على محبة الله . هكذا تمر ايامي ، اصلي تباعا لأجل كل فرد من شغيلتي ، الواحد تلو الاخر . وفي آخر النهار اخاطبهم ببعض الكلمات ونصلي معا ثم يذهبون للراحة . اما انا فأعود الى الدير لتأدية واجباتي الرهبانية » .

بوسعنا ان ندرك من خلال هذه القصة اي جهد واي نضال تتطلبهما الصلاة التأملية وكذلك الرأفة والصلاة الحية . لم يكن الاب سلوان ليكتفي بالقول : « يا رب ، تذكر هذا او ذاك او ذياك ! » ، بل كان يمضي ساعات وساعات في الصلاة برأفة ، في الصلاة بمحبة ، برأفة ومحبة اصبحا شيئا واحدا في قلبه .

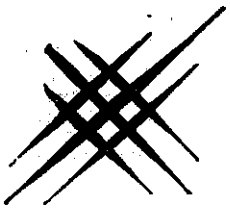

coptic-books.blogspot.com

coptic-books.blogspot.com

المحتويات

		صفحة
مقدمة		٥
الفصل الاول	: غياب الله	٢١
الفصل الثاني	: كيف نقرع الباب	٣٣
الفصل الثالث	: الرجوع الى أنفسنا	٤٥
الفصل الرابع	: السيطرة على الوقت	٦٥
الفصل الخامس	: الحوار مع الله	٨١
الفصل السادس	: منهلان من التأمل	٨٩
	والدة الاله	٨٩
	الراهب سلوان	٩١

coptic-books.blogspot.com